

مذاهب و شخصیات

برتراند راسل الإنسان

تأليف
مسئس عوض

الإهداء

إلى سيادة رئيس الجمهورية

- إلى بطل السلام أهدي حديثي عن رائد السلام
- إلى رجل يفيض قلبه بحب الخير والانسان أهدي
- حديثي عن رجل يجيش فؤاده بحب الخير والانسان

المؤلف

رمسيس عوض

مقدمة

بقلم الاستاذ محمد عطا

لقد سبق للدار القومية للطباعة والنشر ان نقلت اغلب مؤلفات الفيلسوف العالمى « برتراند رسل » الى قراء العربية ، واليوم تقدم اليهم ترجمة لهذا الرجل العظيم تحدث فيها المؤلف رمسيس عوض عن حياة برتراند رسل منذ نشأ لى يومنا هذا ، ولم يقف الكاتب عند مجرد السرد بل انه حلل كثيرا من مواقفه ، واستعرض العوامل التى أحاطت بهذه المواقف .

ان القارئ سىرى فى هذا الكتاب افكارا ثائرة لرسل قد لا تتفق وافكارنا وتقاليدنا ولكن الامانة العلمية حدت بالمؤلف الى ان يذكرها حتى يلم أبناء العربية بأفكار هذا الفيلسوف الماما كاملا ، ويعيشوا معه الحياة التى عاشها والصعاب التى صادفها ، والمشاق التى احتملها فى سبيل افكاره المتحررة .

ان برتراند رسل له آراء ثورية فى التربية، وفى الفلسفة وفى الاجتماع وفى السياسة فهو مثل العالم الشجاع الذى يبدى الرأى الذى يعتنقه وان اسخط عليه الرأى العام .

ان برتراند من العلماء القلائل الذين نذروا انفسهم لخدمة السلام والقضاء على الحروب ، ورفاهية البشرية .

انه ما زال يناضل الى اليوم وان تقدمت به السن ، وطال به العمر ويكفى هذا لتقدير هذا الرجل العظيم الذى لم يلق السلاح ولن يلقه ما دام فيه نفس يتردد ، وروح تنبض .

لقد حوكم مرات ودخل السجن مرات ، وجرح وأهين ولكنه ظل وفيا لآرائه ، مقيما على عهده ، ضاربا المثل فى الشجاعة الأدبية والثبات على المبدأ .

والكتبة العربية ضئيلة بالمؤلفات عن برتراند رسل وخاصة التى تحلل آراءه وتناقشها وتنقل انطباعات هذا الرجل الذى عاش حقبة طويلة ، والتقى بكثير من العظماء وناقش أعمالهم ، وأبدى فيها آراء قيمة ناضجة .

ونرجو أن نكون قد أسهمنا فى نقل صورة حية لحياة هذا الرجل العظيم ، وألمنا بآثاره الماما أقرب الى أن يكون كاملا .

والله تلى التوفيق

محمد عطا

برتراند راسل الإنسان

- ١ - سيرته
- ٢ - محاكمته في أمريكا
- ٣ - دعوته الى السلام
- ٤ - عظماء في حياته
- ٥ - خاتمة

الفصل الأول

سيرته

نشأته :

ولد برتراند راسل عام ١٨٧٢ من أسرة ارسطوقراطية عريقة لها شأو عظيم في الحياة العامة الانجليزية ، وتمتد جذورها لا الى عدة اجيال فحسب ، بل الى عدة قرون خلت . مات والداه وهو في سن مبكرة لدرجة أن ذاكرته لا تعيها . وبعد وفاة والديه تولى جده وجدته أمر تربيته . أما جده الذي رباه فهو اللورد جون رسل (١٧٩٢ - ١٨٧٨) وهو رجل قام بدور هام على مسرح السياسة الانجليزية في القرن التاسع عشر ، فقد تولى رئاسة الوزارة في عهد الملكة فيكتوريا مرتين ، وعاصر نابليون وهو لا يزال امبراطورا .

كان اللورد جون رسل من المشايخين ذوي النفوذ لسياسة حزب « الويجز » المتحرر Whig وهو الحزب الذي تطور فيما بعد واتخذ لنفسه اسما جديدا مازال معروفا به حتى الوقت الحاضر وهو الحزب « الليبرالي » البريطاني (أو حزب الاحرار) . كان هذا الحزب يتأهض سياسة حزب - التورييز Tories المعروف لنا في الوقت الراهن باسم حزب « المحافظين » البريطاني . والحزبان على طرفي نقيض أولهما يدعو الى التحرر والآخر يدعو الى المحافظة ، كان موقف « الويجز » ، و « التورييز » من الثورة الفرنسية نموذجا حيا قويا على مدى الخلاف بين سياستي الحزبين المتصارعين ، فبينما كان حزب « التورييز » يناصب الثورة الفرنسية العداء ، كان حزب « الويجز » على قدر من العطف على مبادئ الثورة الفرنسية وأهدافها . ومما يدلنا على هذا العطف أن جون رسل وهو من زعماء « الويجز » البارزين - قام بزيارة نابليون بعد اندحاره في منفاه في جزيرة البا . ومن الثابت أن اللورد جون رسل من الساسة الانجليز الذين أسهموا بنصيب وافر في ارساء قواعد الديموقراطية في بريطانيا فهو المسئول عن تقديم قانون الاصلاح المشهور في عام ١٨٣٢ الذي سارت بسببه انجلترا بخطا حثيثة على الطريق نحو الهدف الديموقراطي .

تشيع برتراند الفلام بروح التحرر

شب برتراند راسل وترعرع كما راينا في أحضان عائلة غير محافظة من الناحية السياسية وان كانت شديدة المحافظة في مجالات الفضيلة والأخلاق . وكانت أسرته الارستقراطية تورث أفرادها الى جانب القاب النبلاء جيلا بعد جيل ، الافكار المتحررة التي دأبت العائلة على تبنيها منذ القرن السابع عشر . ولا شك أن هذا الجو قد أثر على برتراند رسل من الناحية السياسية منذ يفاعته . وهو يقول في هذا الصدد :

« لقد تعلمت نوعا من الايمان النظرى بالمذهب الجمهورى الذى لا يرى غضاضة فى السماح لملك يتولى الحكم طالما أنه يدرك أنه موظف فى خدمة الشعب يتعرض للطرد اذا ثبت عدم صلاحيته ، وقد كان من عادة جدى الذى لم يكن الاحترام للأشخاص أن يشرح وجهة النظر هذه الى الملكة فيكتوريا التى لم تتحمس لها » (١) .

وهكذا نتبين فى جلاء أن برتراند رسل قد نشأ فى بيئة لا تقيم وزنا للملوك أو لنظام الحكم الملكى . والخط السياسى الليبرالى الذى دأبت عائلة رسل على تأييده يتلخص فى الوقوف فى وجه الملوك والنيل منهم كلما سنحت فرصة لذلك ، ومؤازرتهم فى حالة واحدة وهى التى يتعرضون فيها لهجوم رجال الدين ، مما يدلنا على أن كراهية عائلة رسل للملوك لم تفقها سوى كراهيتها لرجال الدين الذين يمارسون سلطانا زمنيا .

طفولة متقشفة متمزعة غير سعيدة :

من الخطأ كل الخطأ أن نظن أن عائلة رسل كانت تناصب مبادئ الدين الكراهية والعداء فقد كان عداؤها منصبا على رجال الدين الذين يتدخلون فى مجريات الحياة العامة ويمارسون سلطانا سياسيا . ولعل من الغرابة بمكان أن نعرف أن عائلة رسل كانت على الرغم من كل ما سبق ذكره ، شديدة التزمت فى مجال الدين والأخلاق والفضيلة . لم تكن طفولة برتراند راسل سعيدة بأى حال من الأحوال فقد تضافرت ظروف شتى على اشاعة الشقاء فى قلبه . كان فى طفولته يقاسى من الوحدة ويعانى من الخجل ، فهو لا يعرف اقارنا له يقضى وقته معهم ، ويصرفه فى اللعب كما يفعل سائر الصبية فى مثل عمره ، فأخوه الوحيد يكبره بسبعة أعوام وهو فارق كبير فى السن . وباختصار كانت طفولته جافة متجهمة لا يشيع فيها مرح الصبية وبهجتهم . وهكذا كتب على برتراند راسل منذ نعومة أظفاره أن يعيش فى وحدة وعزلة .

(١) صور من الذاكرة Portraits from Memory ص ٧

ولكن هذه الوحدة النفسية ، والعزلة الاجتماعية لم تكن توجع الصبي وتؤله قدر ما كان أسلوب العائلة العقيم في التربية ينفث التعاسة في نفسه ، فهو أسلوب في التربية كما يصوره برتراند راسل في كتاباته - شديد الشطف والغلظة واشبه ما يكون بنظام أسيرطه التربوي في أيام الاغريق الذي عرف عبر التاريخ بقسوته البادية وفظاظته الظاهرة وحرصه على النظام أكثر من حرصه على أى شىء آخر .

كانت عائلة راسل على الرغم من ارسطراطيتها ومكانتها الاجتماعية المرموقة تنهج أسلوب التقشف في معيشتها اليومية كما كانت تولى الورع المتزمت ، والتقوى المتشددة اهتمامها البالغ ، فهي تفرض على نفسها نظاما حازما صارما لا تحيد عنه قيد أنملة . فعلى الرغم من كثرة عدد الخدم الذين يعملون في خدمة بيت راسل (كان عددهم ثمانية) ، الا ان الطعام الذى كان يقدم فيه الى أهله يتصف بالبساطة الشديدة التى تبلغ مبلغ الشطف . فقد كانت العائلة حريصة على ان يعيش أبنائها في جو من الخشونة التى تصنع منهم رجالا يعتد بهم ، فسلا يخرجون الى العالم منعمين مدللين مترفين . ويضرب برتراند راسل مثلا على هذا التقشف فيقول انه لو كان في البيت صنفان من الحلوى ، قل « ترتة » تفاح ، و « أرز باللبن » ، كانت العائلة تكتفى بتقديم « الارز باللبن » لفيلسوف المستقبل وتعهد الى حرمانه من الطعام الاكثر للذة على اعتبار ان أحدهما كاف .

كانت العائلة تصر على أن يستحم برتراند الصبي بالماء البارد على مدار السنة وتفرض عليه التمرين اليومي على البيانو لمدة نصف ساعة في كل صباح ابتداء من الساعة السابعة والنصف في حجرة باردة دون اشعال نار المدفأة ثم تصر على أن يشترك مع العائلة في الصلاة في موعد لا يتغير قط هو الثامنة من كل صباح .

اضف الى ذلك ان الأسرة كانت تنظر الى الخمر والتدخين على انهما شر مستطير ، وان كانت تضطر الى تقديم قليل من الخمر الى الوافدين عليها من الضيوف على أنه من مستلزمات الضيافة التى لا غنى عنها . والشئ الذى لا ينبغى أن يغيب عن ادراكنا هو أن هذا النوع من التربية الاسبرطية كان سائدا بين قطاع كبير من غلاة المتدينين في المجتمع .

كان من الطبيعي الا يسعد برتراند الصبي في هذا الجو الخائق المتزمت كما كان من الطبيعي أن يتمرد عليه . هذا هو السر في أن برتراند راسل أوقف فيما بعد جانبا من كتاباته الفلسفية لمحاربة الكثير من أسس المجتمع الفيكتوري الفكرية ، واسلوب حياته . كانت كراهية راسل لاسلوب تربيته الاولى عنيفة جارفة ، فهو يدينه ويدمغه بلا لين او هوادة . انظر اليه وهو يتحدث عن هذا النظام التربوي فيقول : « كانت الفضيلة هى الشئ الوحيد الذى تعلق الاهمية عليه »

«الفضيلة على حساب العقل والصحة والسعادة وكل مصلحة دنيوية» . (١) والذي لا شك فيه أن ثورته كفيلسوف على التقاليد وقواعد الاخلاق السائدة في المجتمع الفيكتوري مرتبطة ارتباطا وثيقا بظروف نشأته الأولى بل هي في واقع الامر رد فعل طبيعي لها . ولكن ثورته على اخلاقيات المجتمع الفيكتوري المتزمت لم تتجاوز بحال من الاحوال حدود الفكر الى مجالات العمل . والدليل على ذلك ما كتبه برتراند راسل في عام ١٩٣٢ في مقال يحمل عنوانا (في مدح الكسل) : « لقد نشأت شأني في ذلك شأن معظم الجيل الذي أنتمى اليه على المثل القائل بأن « اليد البطالة نجسة » ، ولما كنت طفلا يتحلى بأسس الفضائل ، كنت اصدق كل ما كان يقال لي . واكتسبت ضميرا ما زال يدفعني الى العمل الشاق حتى اللحظة الراهنة . واكن على الرغم من أن ضميري لا يزال يسيطر على «أفعالي» إلا أن «آرائي» قد اجتاحتها ثورة » (٢) .

تمرد راسل بفكره على البيئة التي شب في أحضانها ودمغها بحكمه القاسي عليها بأنها بيئة مريضة تشجع نوعا مريضا من الاخلاق الى الحد الذي يصل فيه هذا التشجيع الى اصابة الذكاء بالشلل .

الطريق الى السعادة :

ظهر خلاف برتراند راسل مع عائلته في سن مبكرة حول دراسة الفلسفة فقد كانت العائلة غير راضية عن هذا الاتجاه فيه . وعملت الأسرة كل ما في وسعها لكي تثنيه عن دراستها ، فكانت تداب على السخرية من دراسة الفلسفة والخط من شأنها وتقول له دائما في نهكم . What is mind ? No matter. What is matter? Never mind. (٣)

وضاق الفلام ذرعا بهذا التهكم المر على ميوله واستعداداته الفطري . وبات يتشوق الى اليوم الذي يتحرر فيه من جحيم البيت الخائق . ورغم أن راسل لم يلتحق بأية مدرسة خاصة أو عامة (فقد توفر على تدريسه في حدائته بعض المربين الخاصين المرموقين) ، إلا أنه لم يكن يكره وحشته وعزلته عن صحبة أقرانه من الصبية بقدر ما كان يكره جو البيت الذي أشاع في قلبه الابتئاس . وعندما حان اليوم الذي التحق فيه راسل بكلية ترينيتي في جامعة كامبردج (في الثامنة عشرة

(١) صور من الذاكرة ومقالات أخرى ص ٩

Portraits from Memory and Other Essays

(٢) في مدح الكسل لبرتراند راسل ص ١ In Praise of Idleness

(٣) هذه النكتة تعتمد أساسا على التورية التي تنطوي عليها كلمتا

matter و mind الانجليزيتان فكلمة mind تحمل معنى «العقل» و

never mind تعني « لا نهتم » أما matter فتعني المادة ، و No matter

لا يهم .

من عمره) ، غمرته سعادة عارمة ، واستبدت به نشوة جارفة فقد أسكره الجو الجامعي وأنعش روحه منذ اليوم الأول . ولا غرو في ذلك ؛ ففي الجامعة كان فكره يستطيع الانطلاق والتعبير عما شاء من آراء ومعتقدات دون أن يحمل في أحد على أنه مختل في قواه العقلية ، أو ينظر إليه على أنه مجرم أثيم كما كان أفراد عائلته يفعلون . ولم يجد راسل أدنى مشقة في أن يآلف جو الجامعة الذي تلاهمت روحه معه بسرعة فائقة . واستطاع في أول فصل دراسي له في كامبردج أن يعقد صداقات وطيدة لم تنفصم عراها مدى الحياة .

وبعد أن تخرج برتراند راسل من الجامعة بتفوق في الرياضة جاءت مشكلة العمل الذي يقوم بممارسته . أرادت له العائلة أن يشتغل بالسياسة لأن الاشتغال بها كان العمل الذي توارثته العائلة دون انقطاع منذ القرن السادس عشر . واعتبرت العائلة أن في الخروج على تقاليدها خيانة للأمانة التي وضعتها في عنق سليلها . وبذلت الأسرة من ألوان الضغط على راسل الكثير ، ولوحت له في أغراء أنه سيجد الطريق إلى السياسة ممهدا ، ومفروشا بالورود ، وبالفعل عرض عليه اللورد دفرين Dufferin وظيفة بالسفارة الانجليزية في باريس كما عرض عليه جون مورلي John Morley الوزير لايرنلدا وظيفة أخرى . وكاد برتراند راسل أن يلين أمام الضغط والترغيب ويقبل العمل بالسلك السياسي (الذي التحق به بالفعل لفترة وجيزة لاتتجاوز بضعة شهور) . ولكن أغراء الفلسفة كان قويا جارفا فلم يستطع مقاومته ، رغم ما كان يتضمنه هذا الإغراء من أغصاب للعائلة . وفي عام ١٨٩٥ عين راسل زميلا بجامعة كامبردج لتدريس الرياضة بها .

رسل يبيع كتب الرياضة ويتجه شطر الفلسفة :

بمجرد أن تخرج برتراند راسل من الجامعة غمره شعور بالاشمئزاز من الأسلوب المتبع في امتحانات الرياضة فيها لدرجة أنه اقتنع بأن علم الرياضة لا يعدو أن يكون ضربا من الأحاجي والألفاظ يتطلب التفوق فيه مهارة في التملص والمراوغة . وأقسم رسل بينه وبين نفسه ألا يفتح كتابا في الرياضة بعد ذلك . وقام ببيع كل كتب الرياضيات التي في حوزته ، وبدأ يتجه باهتماماته شطر الفلسفة فقد أحس أن دراسة الرياضة قد غدلت أحلام يفاعته .

كان الأمل يداعب برتراند راسل في يفاعته في أن تصل به الرياضة إلى التدليل القاطع على الأمور وإذا بأسلوب الامتحانات الجامعية يخيب أمله ، ويدله على أنها تتلخص في مجرد المهارة والحلق في التخلص من المآزق عن طريق التحايل والمراوغة . أن السبب الذي حداه إلى دراسة الرياضة ، صباه هو اللذة التي كان يشعر بها في البرهنة على الأشياء.

وحبه الذى يجرى فى عروقه للاستدلال العقلى . وكانت ملكة الندبل هذه متأصلة فيه منذ صباه . فعندما كان فى الحادية عشرة من عمره توجه الى اخيه الذى يكبره بسبع سنوات ليتلقى على يديه أول درس فى الرياضة . كانت هندسة اقليدس هى المتبعة حينذاك . وبدأ أخوه الأكبر بالتعريفات وسرعان ما استوعبها عقله . ولما جاء دور البديهيات أفهمه أخوه أنه يتعين عليه أن يقبلها على أنها مسلمات لا تقبل الجدل ولا تخضع للبرهنة والاثبات ، فاستاء راسل الصبى وأظهر نوعا من الغضب وقال مخاطبا أخاه : « ولكن لماذا ينبغي على أن أعتزف بهذه الأشياء اذا لم يكن من المستطاع اثباتها ؟ » فأجابه أخوه : « اذا لم تعترف بها فلن يمكننا الاستمرار فى الدرس » . ولم يحمل الصبى على الاذعان سوى حرصه على أن يعرف « بقية الحكاية » على حد تعبيره ، وخشيته من أن يمتنع أخوه عن الاستمرار فى الشرح . وهكذا اضطر راسل رغم شكه وحيرته الى قبول البديهيات على أنها مسلمات لا تقبل الاثبات أو البرهان .

ومما يدلنا على ناضل الرغبة فى ايجاد أسانيد للبرهنة على الأشياء فى تكوين برتراند رسل العقلى ، أكثر من رغبته فى أى شىء آخر ، أنه لم يغضب أو يدركه الاستياء عندما قال له صديقه البروفيسور ج . ه . هاردي ، أستاذ الرياضة النظرية ، ذات يوم أنه لو توفر له الدليل على أن صديقه الحميم برتراند سيموت فى غضون خمس دقائق لما تردد فى الترحيب بموته للتدليل على صحة ماذهب اليه رغم الالم الذى سيجب عليه له فقدان صديق عزيز . هذه الحادثة التى لم تغضب رسل مطلقا تدلنا بجلاء على أنه يقيم وزنا للمعرفة اليقينية القائمة على التدليل أكثر من اهتمامه بأى شىء آخر على سطح الارض .

وعندما فشلت طرق تدريس الرياضة وأساليب امتحاناتها فى الجامعة فى ارضاء هذه الاستعدادات الاصيلية فيه ، اتجه برتراند رسل شطر الفلسفة يبنى منها ماكان يرجوه من دراسة الرياضة . ويقول رسل ان السبب الذى يدعو الانسان الى دراسة الفلسفة يتخذ اشكالا عديدة . ومن اهم الاسباب التى تدفع المرء الى هذه الدراسة رغبته فى فهم العالم . لقد كان هذا الدافع قويا فى الماضى عندما كان العلم والفلسفة يجتمعان فى صعيد واحد ، كانت رغبة الانسان فى فهم العالم قوية وذلك قبل أن ينسلخ العلم عن الفلسفة ويصبح له كيان مستقل قائم بذاته . ويرى الفيلسوف أن هناك سببا آخر يدعو الى دراسة الفلسفة يتلخص فى الشك فى الحواس وفى المعرفة القائمة عليها . فعندما بدأ الشك يساور الاغريق فى حقيقة وجود الآلهة على جبل الاولب التحا بعضهم الى الفلسفة يحدوهم الامل فى ايجاد ما يعوضهم عنها عن المعتقدات التقليدية التى لم يعودوا يؤمنون بها . ويقول رسل

أن رغبته في التوصل الى معرفة يقينية تقيم سياجا يحميه من الشك كانت حافرا هاما دفعه الى دراسة الفلسفة . ففي صدر شبابه وهو بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة من عمره عكف على دراسة المسلمات العقائدية الاساسية التي يتضمنها الدين بقصد الوصول الى جوهريات دينية يمكنه الاستمسك بها . ولكن عقله ابى ان يقتنع بأى منها . ودعاه فشله في استخلاص جوهريات دينية يمكنه الايمان بها الى الالتجاء الى الفلسفة على يجد فيها معتقدات تحل محل المعتقدات الدينية التقليدية التي نبذها . ولكن الفلسفة فشلت بدورها في تعويضه عما افتقده من هذه المعتقدات . وبمعنى آخر فشل رسل في ان يجد في الفلسفة ما يرضى نزعاته الدينية . والان بعد أن اكتملت فلسفة رسل التي تعتمد على العقل وتمجد التشكك فيما لا يستطيع عقل الانسان اثباته أو البرهنة عليه ، نجد أنها لا تزعم لنفسها القدرة على اراحة الانسان مثلما تريحه المعتقدات التقليدية . ولكن العزاء الوحيد الذى تقدمه فلسفة رسل للانسان هو حرصها الشديد على الامانة الفكرية مهما كلفت من ثمن والايمان بأن التشكك والقلق الفكرى الذى يجيء في أعقابه كنتيجة لانعدام المعرفة اليقينية ينطويان على شجاعة أدبية وفضيلة أخلاقية .

مر برتراند راسل بمراحل تطور فكرية واضحة حددت اتجاهاته الفلسفية فقد بدأ باعجابه بفلسفة الفيلسوف الالماني « كانت » ولكنه هجرها عندما أسقطته كما يقول في وهدة من الطلاس الميتافيزيقية المحيرة . وعاف عقله الشديد الحرص على الوضوح ، ما انحدر اليه بسبب فلسفة « كانت » من غموض . وليس هناك أدل على كراهيته للغموض مما كتبه عن نفسه قائلا « اننى أحب التحديد ، وأحب الخطوط الواضحة وامقت الغموض المستغلق » .

وبعد أن تخلص رسل من اثر « كانت » عليه ، وقع تحت تأثير الفلسفة الهيجيلية فقد أرشده صديقه الحميم ماك تاجارت McTaggart رائد الهيجيلية في انجلترا الى هذه الفلسفة . واجتذبت الهيجيلية برتراند رسل اليها لما عرفه عنها من أنها فلسفة ترضى الرغبة في الايمان عن طريق الاستمسك بجوهريات الدين في اطار عقلى شديد التعقيد ، لا تحده الحدود التقليدية الضيقة ، فهذه الفلسفة تنتهى الى « المطلق » وهو اسم آخر لله ، كما أنها تصور الكون على أنه وحدة واحدة لا سبيل الى الفصل بين اجزائها . ومما زاد في تشبث رسل بالهيجيلية في وقت من الاوقات هو ارتياحه للاعتقاد بأن المادة وهم وبأنه لا وجود للزمان والمكان وبأنه ليس هناك لغير العقل وجود . ويقول رسل أن أثر هيجل عليه استمر لمدى طويل حتى بدأ يقرأ هيجل فى نصوصه الاصلية فروعه

وخيب ظنه أن يصطدم بحزمه من الافكار المضطربة المهوشة التي بدت له مجرد تلاعب بالالفاظ .

وبعد ان هجر برتراند راسل فلسفة هيجل ، استأثر به لبعض الوقت نوع من التصوف الرياضى استمدته من أفلاطون الذى استمدته بدوره من فيثاغورث . وبعد أن أجرى رسل على الافلاطونية بعض التغييرات التي خففتها ولطفت من حدتها ، آمن رسل كما تؤمن الافلاطونية بأن هناك عالما من المثل كاملا سرمديا لا يعرف التغير ، عالما تعطينا الحواس عنه صورة ناقصة شائبة تنأى عن الكمال، وبأن الرياضة التي تعالج عالم الافكار تتصف بالكمال والدقة اللذين يخلو منهما عالم الحس المتغير الذى نخبره في حياتنا اليومية . ولكن الامر انتهى ببرتراند رسل الى نبذ هذا التصوف الرياضى ومنذ ذلك الحين ورسل لا يجد رأيا دينيا فى أى مذهب فلسفى يستطيع أن يقتنع به .

برتراند راسل الخنزير الشيوعى : بدا برتراند رسل حياته الفكرية مؤمنا بالاستعمار ، مؤيدا له وكان فى تحيزه للاستعمار متأثرا بسيدنى ويب Sidney Webb . ولكن نوعا مما يطلق عليه المسيحيون « الاهتداء الى الدين الحق » انتابه فى عام ١٩٠١ على وجه التحديد تخلى الفيلسوف على اثره عن كل نزعاته الاستعمارية ونبذها نبذا تاما .

وفى عام ١٩١٨ ، عكف برتراند راسل على كتابة « الطرق الى الحرية » ابان الحرب العالمية الاولى وفرغ من كتابته قبل أن تزج به السلطات الانجليزية فى السجن لدعوته الى السلام وانهاء الحرب بأى ثمن . وفى هذا الكتاب دافع رسل عن الاشتراكية ، واعتبر أن اشتراكية الدولة كما وضعها ماركس ، والفوضوية كما بشر بها باكونين وكروبوتكين ومذهب الاشتراكية النقابية المتطرفة (Syndicalism) كما كان سائدا فى فرنسا ، تكون جميعا دعائم الحرية وترسى أسس المجتمع الجديد الذى كان رسل يرغب فى انشائه على انقاض العالم القديم الذى قوضت أركانه الحرب العالمية الاولى – ولاشك أن رسل تعمد اختيار اسم « الطرق الى الحرية » لكتابته بدلا من « الطريق الى الحرية » حتى يبين أن هذه المذاهب جميعا – وان كانت قاصرة اذا أخذنا كلا منها على حدة – تساهم فى وضع أسس العالم الامثل الذى تطمح الانسانية فى اقامته . وفى هذا الكتاب نجد رسل متحمسا للشيوعية الفوضوية بعض الشيء . والسبب فى عطفه على الفوضوية هو حرصه الشديد على استكمال حرية الفرد واستقلاله وتخوفه من البيروقراطية فى اشتراكية الدولة عند ماركس .

ولكن فى عام ١٩٢٠ زار برتراند راسل الاتحاد السوفييتى لمدة قصيرة ، وتعمد أن يختلط بأكبر قطاع ممكن من الناس حتى يتعرف على

التجربة الشيوعية الوليدة . وقابل رسل لينين ومكث معه ساعة . واغتم الفيلسوف لما رآه من مظاهر القسوة . والبطش في روسيا الشيوعية ، ومن غلظة قلب زعيمها لينين . وتركت هذه الزيارة القصيرة في نفسه أسوأ الأثر . لم يرق لينين في عين برتراند راسل رغم اعتراقه الصريح بتفاني الزعيم الروسي الذي لا يرقى إليه الشك في المبدأ الشيوعي وفي رغبته في الإصلاح . فقد كان لينين يروى لزائره مستضحكا كيف انه كان قبل اندلاع الثورة الحمراء يحرض الفلاحين على الاجهاز على اصحاب الاراضي والاقطاعيين وشنقهم على اقرب شجرة . كان لينين يروى هذه الحادثة مقهقها ، كما كان يظهر لذة في استرجاع هذه الذكريات . ويبدى تسليية وتشفيا ينمان عن خلوه من العواطف الانسانية ويجعلان بدن الانسان يقشعر . ساء رسل ان يجد ان الكراهية هي القوة الدافعة للينين ورفاقه من الشيوعيين ، ولم ير في زعيم الشيوعية السوفيتية الا تعصبا أعمى . ويقول الفيلسوف في هذا المجال انه استيقن من ان الشيوعيين الذين استولوا على الحكم في روسيا عام ١٩١٧ تحركهم عاطفة واحدة جارفة مستبدة هي الحق قد فآظهر اشمزازه من أن يكون الحق أساسا لاي اصلاح اجتماعي . كان لينين ورفاقه قبل الثورة يصبون حقدهم على أعدائهم من الاقطاعيين والبورجوازيين وعلى كل ما يعترض سبيل الثورة الشيوعية ، فلما تحقق للحاقدين الاستيلاء على زمام الحكم ، وتصفية بواعث حقدهم القديم ، كان طبيعيا أن يبحثوا عن أشياء أخرى جديدة يصبون عليها حقدهم الاسود الذي أصبح جزءا لا يتجزأ من تركيب جهازهم النفسي .

وهكذا خرج برتراند راسل من روسيا الشيوعية ساخطا كل السخط وشرع يهاجم الشيوعية السوفيتية . واستاء اليساريون في الغرب من هجومه على التجربة الشيوعية الجديدة التي يعطفون عليها ، ونظروا اليه شذرا واعتبروه أجيرا للبورجوازية . واستمر اليساريون القريبون يناصبونه العداء الى وقت قريب حتى استيقنوا ان الاتحاد السوفيتي لا يقيم المجتمع الذي يحلمون باقامته . اما اليمينيون فلم يلتفتوا الى تغير موقفه من الشيوعية وظلوا يذكرون عطفه القديم عليها . وأطلقوا عليه اسم « الخنزير الشيوعي » . وبذلك أصبح رسل موضعاً للاتهام والكراهية من كل جانب ولم ينقذه من هذا الموقف العصيب سوى زيارة الى الصين امتدت نحو عام استمتع بها الفيلسوف استمتاعا عظيما فقد رآه له حضارة الصين الثالثة واستهوته النزعة العقلية التي تسود هذه الحضارة . ويدين برتراند رسل بالفضل الى هذه الزيارة التي علمته ان ينظر الى الحاضر الانساني في ضوء الاحفاب التاريخية السحيقة . وساعده هذا الاحساس بالابعد الزمنية الشاسعة ان يتخلص من النظرة الضيقة التي تحبس الانسان في سجن الحاضر بصفائنه واحقاد الصغيرة وآماله المحدودة .

والعجيب في الامر ان هذه التهم القديمة استمررت الاصقة به الى وقت قريب جدا .

الفيلسوف العظيم لا يتلائم مع أحداث القرن العشرين :
يجد برتراند راسل صعوبة كبيرة في أن يتلائم مع أحداث القرن العشرين فقد شب وبرعرع في ظل مجتمع له مقدساته ونعاليد الراسخة كالطود الاشم ولكنه يرى الآن بعين الحسرة والألم جل هذه المقدسات الشامخة والنعاليد السامقة تنهافت ثم تزول . أما البقية الباقية منها فتهدده الاخطار من كل جانب . .

ان التغير الذي طرا على العالم في القرن الراهن يهول رسل ويفزعه وهو ينظر الى انكماش الحريات في العالم وتقلصها نظرة ملؤها الحزن والاسى . وهذا طبيعى للغاية فقد نشأ الفيلسوف في أحضان المجتمع الفيكتورى وثار في وجه الكثير من قيمه . ولكنه تشرب روحه الديموقراطية المتحررة كما وضع أسسها الفيلسوف الانجليزى جون لوك J. Locke في القرن الثامن عشر وكما درج القرن التاسع عشر على فهمها . وقد يجوز لنا ان نصف رسل بالارستقراطي المتמיד فهو ولاشك يسمى الى تحطيم الكثير من قواعد الفكر المألوفة في المجتمع الفيكتورى التى لا تزال مألوفة في العصر الحديث ، ولكن الذى لاشك فيه كذلك ان التقليد الليبرالى الديموقراطى المتأصل في المجتمع الفيكتورى يلقى منه كل احترام وينال كل اكرام ، وخاصة بعد ان شاهد رسل العالم المحموم ينزلق في حربين عالميتين مجنونتين في مدى قصر . وبعد ان رأى بعينه قلاع الحرية تنهار أمام لومة اللاعقل وأمام معاول الاستبداد والديكتاتورية . وقد ذكر رسل في حديث تليفزيونى أجراه ودروويات Woodrow Wyatt معلق التليفزيون البريطانى المشهور عام ١٩٥٩ ونشر عام ١٩٦٠ ضمن احاديث أخرى في كتاب تحت عنوان « راسل يفصح عما في خله (١) »

Russell Speaks his Mind انه كبير الى عجز لا يستطيع مطلعا ان يستسيغ الهاوية التى تردت فيها الحريات في القرن العشرين - ويقول رسل في أكثر من موضع ان الفرد لم يكن في حاجة الى حمايته من سيطرة الدولة في أى وقت في الاوقات مثل حاجته اليها في العصر الحديث .

يقول برتراند رسل ان التنبؤات التى ذكرها جورج اورويل George Orwell في قصته المعروفة ١٩٨٤ تتحقق بالتدريج ، وان العالم عن بكرة ابيه يتوغل في الظلام الذى صورده اوريل في هذه

(١) نشر هذا الكتاب في مجموعة كتب ثقافية

الفصل . واذا كان العالم لا يدرك حقيقة هذا الموقف فذلك لان الحريات تنكمش بالتدريج ، ولان الناس في القرب قد استخف بهم الرضاء عن النفس فظنوا واهمين انهم بمأمن من هذا المصير وتوهموا ان ظلام الديكتاتورية الدامس كما رسمه اورويل . المخيم على الاتحاد السوفيتي لن يصل اليهم بحال من الاحوال دون ان يدركوا ان نفس الظلمة تزحف اليهم وتشملمهم بالتدريج . ويقول رسل انه لا بد للناس في القرب ان ينتبهوا الى ان العالم قد افتقد الكثير من مظاهر الحرية التي كانت تسود أوروبا في القرن التاسع عشر . فقد اختفت من القرب حرية التنقل بدون جواز سفر وحلت فكرة الرقابة على الصحف التي لم تكن تخطر على بال أحد في القرن الماضي . لقد كانت أوروبا تشعرا شمسناز وفزعا عندما تنظر الى استبداد روسيا القيصرية وجورها ، وكانت تنظر الى القيصرية الروسية واستبدادها نظرتها الى نظام بربرى غير متمدين ويقول رسل ان روسيا الشيوعية اشع حالا من روسيا القيصرية ولكن ليس معنى ذلك ان يتجاهل القرب الاخطار التي تهدد نظامه الديمقراطي وحرية التي يفخر بها . ويدلل رسل على الاختفاء التدريجي لكثير من مظاهر الحرية التي كانت معروفة في القرن التاسع عشر بان وزارة الداخلية الانجليزية نلجا الى تطهير أجهزة الدولة ممن تشبه في ولائهم وان هذا التطهير يتم سرا حتى لا تثار حوله الضجة ويحاط الرأي العام به علما ، كما أنها لا تسمح بالهجرة على النحو الذي كانت تسمح به في الماضي . اصف الى ذلك انها تقصر الهجرة على حالات قليلة يكون الباعث اليها أسباب سياسية . ويعيب رسل على الحكومة البريطانية مظهرا خطيرا من مظاهر انعدام الديمقراطية يتجلى في تنحية بعض أساتذة الجامعات من مناصبهم - بزعم عدم الكفاءة احيانا - ممن تشبه في ولائهم السياسى دون أن يتوفر لديها الدليل على صحة هذه الشبهات . ويرى رسل ان العدل يقتضى اقامة جهاز بوليسى منفصل عن جهاز البوليس العادى ، يستهدف انبات براءة المتهم والعمل على اجباط مساعى جهاز البوليس الاصلى ، فليس من العدل أن نسخر الدولة مواردنا لاثبات جرم المتهم دون أن نعمل شيئا أو تحرك ساكنا لاثبات براءته . فان أراد المتهم أن يدفع عن نفسه التهم الملصقة به اضطر أن يفعل ذلك على نفقته الخاصة ، وفي كثير من الاحوال يعجز المتهم عن اثبات براءته لما يتطلبه هذا الاثبات من نفقات طائلة أثقل من أن يتحملها كاهله . ولعل هذا يعطينا صورة عن مدى تخوف برتراند رسل من أجهزة البوليس وتشككه منها ، وعدم قدرته في نفس الوقت على التأقلم مع ظروف القرن المضطرب الذي يعيش فيه .

لم يكن يخطر على بال مخلوف في انجلترا في القرن التاسع عشر ان جذور الامبراطورية البريطانية ستتزعزع في يوم من الايام ولكن أحداث

القرن العشرين زلزلت هذه الثقة الاكيدة في رسوخ الامبراطورية . ومن بين الافكار الراسخة في تربة القرن التاسع عشر التى تهاوت في القرن الحاضر ، الايمان الذى لا يتزعزع بالعلم وبامكانيات التقدم الضخمة . كان القرن التاسع عشر شديد التفاؤل يؤمن بالتقدم المنظم في العالم بأسره ، وباختفاء الثورات من مسرح الاحداث الدولية وبوقف الحرب تدريجيا حتى يسود السلام والاستقرار أرجاء الارض ، وبامتداد نظم الحكم البرلماني حتى تشمل انحاء المعمورة . لقد تشرب برتراند رسل الكثير من مظاهر هذا التفاؤل الفيكتوري الهائل ولكن الاحداث في القرن العشرين اضطرته الى التخلي عن الكثير من اسباب التفاؤل . ولعل ماكتبه عن نفسه يلقي ضوءا على طبيعة التغيرات التى أجراها القسور الراهن في نظريته الى الحياة : « لقد شببت في غمار التفاؤل الفيكتوري ، ولكن على الرغم من أن التفاؤل السهل السائد حينذاك لم يعد ممكنا ، فان شيئا من الرجاء الذى كان ميسورا آنذاك مازال يداعبنى حتى الان » .

ان برتراند رسل يهوله أن يرى العالم الان على فوهة بركان قد يطيح به في أية لحظة . لقد فقد الفيلسوف الكثير من تفاؤل القسور التاسع عشر وهو دائب القول على أن العالم ليس بحاجة في الوقت الحاضر الى المزيد من المعرفة التكنولوجية قدر حاجته الى مزيد من الحكمة والانصات لصوت العقل والتسامح .

الفيلسوف العظيم يتأرجح بين اليأس والرجاء :

نشأ برتراند رسل كما سبق أن ذكرنا في جو القرن التاسع عشر المنحدر المتفائل . وأخذ عن والديه اللذين كانا من أتباع الفيلسوف « الليبرالي » المعروف جون ستيوارت ميل ايمانه بحقوق المرأة . ولعب رسل نفسه دورا هاما في تحرير المرأة الانجليزية وحصولها على حقوقها السلبية . وعندما يستعرض الفيلسوف الكهل الان أحداث العالم الحديث يصيبه اليأس تارة ويداعبه الامل تارة أخرى . ونحن نجدد يرحب بالتطورات الداخلية في انجلترا التى يرى أنها استكملت حريتها وديموقراطيتها بمنح المرأة حقها الانتخابي ، كما أنه يرى أن انجلترا قد امكنتها تحقيق نوع من الاشتراكية المعتدلة التى لا تتعارض وحريات الافراد الخاصة . والى جانب ذلك يرحب الفيلسوف بالقدر الراهن من التسامح في مجالات الاخلاق الخاصة الذى يزيد عما كان عليه المجتمع الفيكتوري كما يرحب بارتفاع مستوى المعيشة بين الكادحين وبانخفاض نسبة الوفيات وخاصة بين الاطفال دون أن تترتب على ذلك زيادة عدد السكان زيادة مخيفة مروعة .

ولكن اليأس يتطرق الى قلبه عندما يستعرض الموقف الدولي فعد

كان يأمل في صدر شبابه ان ينجح الانسان في تصعيب الحروب والغاء
الفاقة والعوز في أرجاء العالم كله ، وفي زيادة شعور التسامح والمودة
بين الناس وفي تهيئة اكبر قدر ممكن من الفرص لتنمية المباداة عند
الافراد على اوسع نطاق دون الحاق الاذى بالآخرين .

وامام هذا الاحساس اليائس ، يهتف به هاتف الشيطان - الذى
يبدو له انه هاتف العقل ايضا - أن يتخلى عن السياسة ويطرح مجريات
الحياة العامة . ويذكره هذا الهاتف في ألم عظيم أن مقاليد العالم الراهن
في أيدي كبار ساسته ، في أيدي دالاس وخروتشوف وماوتسي تونج
وانها ليست بيد العاديين من أمثاله من البشر ، ان هؤلاء القادة الكبار
هم الذين يقررون مصير الانسان ، يقررون له الموت أو الحياة . ورسل
لا يستطيع أن يفعل شيئا حيال ذلك أكثر من اصدار الكتب التى لايعنى
هؤلاء الساسة بقراءتها ، وحتى لو قرءوها لاستسحقوها . ولكن هذا
الهاتف الخبيث اليائس لا يستولى على فكره تماما ولا ينجح في أن يثنيه
عن العمل وفي تشييط همته لان جانبها من عقله يؤمن بأن الساسة
انفسهم يتأثرون بالرأى العام في بلادهم وأن الكتب تساعد على خلق
الرأى العام وقد تترك فيه كتبه شيئا من الاثر . وعلى كل حال فرسل
يقنع نفسه بأن كتابة الكتب هواية بريئة لاضير منها فهو تبعده عن طريق
الزلل والضلال ، ولهذا يستمر في كتابتها رغم انه لا يعرف اذا كانت
هذه الكتب ستفيد في شيء أم لا .

الفصل الثاني

محاكمة برتراند رسل في أمريكا

(١)

في عام ١٩٤٠ خلت وظيفتان لتدريس الفلسفة بجامعة مدينة نيويورك بعد أن اعتزل الخدمة استاذ الفلسفة ، في قسم الفلسفة بالجامعة . ورشح برتراند رسل الذي كان يحاضر في الفلسفة في جامعة كاليفورنيا حينذاك كي يشغل أحد المكانين الشاغرين . وأرسلت جامعة مدينة نيويورك دعوة الى الفيلسوف المعروف للعمل بقسم الفلسفة بها مدى عام (ابتداء من ١ فبراير سنة ١٩٤١ حتى ٣٠ يونية ١٩٤٢) وقد قابل جميع اعضاء هيئة تدريس الفلسفة ومجلس ادارة الجامعة وشتى المسئولين فيها دعوة الفيلسوف الكبير بالاستحسان والترحيب البالغين . واعتبر الجميع أن في تعيين برتراند رسل كسبا عظيما للجامعة لم تنعم بمثله طوال حياتها الاكاديمية . وقبل رسل الدعوة فأرسل له رئيس مجلس التعليم الاعلى خطابا يعبر فيه عن شكره وامتنانه لقبوله للدعوة ويؤكد فيه النصر الكبير الذي ينطوى عليه قبول الفيلسوف العظيم للتدريس في جامعة مدينة نيويورك .

(٢)

وعندما اذيع نيا تعيين رسل هاجت الدنيا وماجت ، وتعالى الاصوات بالقدح والهجوم عليه فقد أرسل الاسقف ماننج Manning خطابا دوريا نشرته كافة صحف نيويورك قال فيه : « ما عسى أن يقال عن الكليات والجامعات التي تعين لشبابنا ، مدرسا مسئولوا للفلسفة ، عرف بتهجمه على الدين والاخلاق ودفاعه عن الزنا بالذات ! » ولم تمض ايام حتى عاد هذا الاسقف الى شن هجوم مقذع على رسل قال فيه : « هناك قوم ممن اضطربت عقولهم وأخلاقهم لا يجدون ضيرا في تعيين رجل يقول في كتاباته المنشورة « ليس هناك مقياس للاخلاق خارج الرغبات الانسانية » .

وكان خطاب الاسقف ماننج بمثابة الطلقة التي اعلنت بدء المعركة التي خاضها معارضو رسل للتشهير به وللضغط والتخويف . فقد شنت عليه الصحافة الامريكية اقذع هجوم واتهمته باهتساع التهم واغلظت له الكثير من القول . قالت « التابلت » The Tablet : « أن تعيين رسل جاء كصدمة قاسية ومهينة لكل اهل نيويورك ، ولسائر الامريكان

البحقيين ، وطالبت الجريدة في مقال افتتاحي لها بالغاء هذا التعيين ووصفت رسل بأنه أستاذ الوثنية وفيلسوف الفوضوية الاخلاقية في بريطانيا العظمى . . الرجل الذى أصبح دفاعه عن الزنا كريها حتى انه يقال ان احد اصدقائه اعتدى عليه بالضرب . أما مجلة اليسوعيين الاسبوعية « أمريكا » فأشارت الى رسل بقولها انه « مدافع عن الانحلال الجنسى ضامر ، ومطلق ومتهتك . . . وهو الان يلحق الطلبة في جامعة كاليفورنيا سموم الاباحية والحياة المتهتكة المنحلة في أمور الجنس والحب الدنس وزواج المتعة . هذا الانسان المفسد الذى لم يكن أميناً مع «عقله» و « ضميره » والذى يربأ كل انجليزى شريف بنفسه ان يقيم سلة به » .

وشبه بعضهم الفيلسوف الانجليزى بالحية الرقطاء التى تكمن في الحشائش وقد أبرق احد معارضيه خطابا لعمدة مدينة نيويورك لاجارديا La Guardia يقول فيه : « لو كان برتراند رسل أميناً حتى مع نفسه لاعلن كما أعلن روسو من قبل : « اننى لا أستطيع ان أرى كتاباً من كتبى دون ان يقشعر بدنى . فأنا أفسد بدلاً من ان أعلم وانفث السموم بدلاً من ان اغذى . ولكن العواطف الهوجاء تعمىنى ، ولست على الرغم من أحاديثى المهذبة الا وغدا » . وطلب مرسل البرقية من العمدة التدخل لحماية الشباب من النفوذ السئ » لهذا الرجل العبقرى القرد ، رسول الشيطان الى الانسان » . وعندما ازداد ضغط الرأى العام الهائج على الاوساط الجامعية لاختيارها غير الموفق ، اضطر احد أعضاء مجلس التعليم الاعلى الذى سبق أن صوت لتعيين رسل بالاجماع بأن يصرح بأسفه على هذا التعيين . وبرر قبوله لتعيين رسل في البدء بأنه لم يكن على علم من قبل بأراء رسل الفاضحة .

ولم تسكت الصحافة عند هذا الحد بل تمادت فوصفته احدى الصحف وهى جورنال آند امريكان Journal & American بأنه يحبذ شيوعية النساء وحملهن سفاحاً وتربية الاطفال كى يصبحوا أدوات طيعة لدولة ملحدة . ولم تقف حملات التشهير عند هذا الحد فرغم أن آراء رسل فى الشيوعية السوفيتية معروفة لدى الجميع الا ان أعداءه ومعارضيه كانوا يعمدون الى اقتطاف عبارات من كتب له كان قد ألفها فى الماضى دون ذكر للنص أو السياق الذى وردت فيه . وكانوا يستدلون بهذه المقتطفات على أنه نصير للشيوعية . وهكذا أصبح الفيلسوف الكبير مضغة فى أفواه معارضيه الذين لم يكتفوا بالتنديد بالتحلل خلقه بل اضافوا الى هذا تهمة الشيوعية .

وتقدمت هيئات وجمعيات لا حصر لها تحرص على شئون التربية والتعليم تطالب بطرد الفيلسوف الزائر كما تطالب بطرد جميع أعضاء مجلس التعليم الاعلى الذين صوتوا لتعيينه . وصال رجال الدين وجالوا

وابيروا للهجوم على رسل في خطب حماسية ملتهبة مشيرة . وركز رجال الدين هجومهم على نقطتين : (١) ان رسل اجنبي فليس له الحق القانوني ان يقوم بالتدريس في جامعة امريكية . (٢) ان آراءه في الجنس تشكل خطرا على الاخلاق العامة وتدفع الى الجريمة .

وهاجمه القس جون شولتز John Schultz في كلية اسوبس Esopus اللاهوتية قائلا : « ان شباب هذه المدينة يتعلمون (على يد رسل) ان الكذب شيء لا وجود له ، كما يتعلمون ان السطو مشروع وله مبررات . وكذلك النهب والسرقة . وهم يتعلمون كما تعلم ليوب ولبولد (١) في شيكاغو ان الجرائم الفظيعة غير الانسانية مشروعة ايضا ولها ما يبررها » . وبالإضافة الى هذا كله ، اتهم رسل بأنه يدعو الابناء لكراهية الاباء والحقده عليهم كما ان تعاليمه تشجع على اراقة الدماء في سبيل المتعة الحسية .

واشترك عدد كبير من رجال السياسة في المعركة فاحتج واحد منهم (وهو قاض) على انفاق أموال دافعي الضرائب على تعليم فلسفة في الحياة تنكر وجود الله وتتحدى الذوق والتربية كما تتعارض تماما والروح الدينية التي تميز الامة الامريكية وحكومتها وشعبها .

وقدم احد اعضاء المجلس البلدى في نيويورك اقتراحا يطلب فيه من مجلس التعليم الاعلى الغاء قرار تعيين برتراند رسل . وفاز هذا الاقتراح بأغلبية أصوات اعضاء المجلس البلدى (٥ / ١٦) . ولكن ستانلى ايزاكس Stanley Isaacs الجمهورى لم يكتفِ لشعبه الجماهير المتهبة وانبرى مدافعا عن رسل وعن مجلس التعليم الاعلى . وقد صرح احد اعضاء المجلس البلدى المعارضين لرسل في اجتماع عام انه سيطلب من المجلس الغاء معونته لعام ١٩٤١ للجامعات في مدينة نيويورك وقدرها ٧٥٠.٠٠٠ دولار اذا لم يتم طرد رسل وقال انه لو كان الامر بيده لتأكد من ايمان الجامعات بالله أو لاغلق أبوابها . وتوالى الخطباء في هذا الاجتماع وسب أحدهم (واسمه نشارلس ، ا كيجان Charles E. Keegan) رسل سبا قبيحا . وقال آخر انه لو كان نظام الهجرة والجوازات في أمريكا نظاما دقيقا لما أمكن لهذا الوضع أن يطلأ بقدمه أرض الولايات المتحدة .

(١) ارستقراطيان من هواة الاجرام في امريكا دبرا-جريمة قتل محكمة دون سبب وكادا أن يفتتا من القصاص لبراءتهما في ارتكاب الجريمة لو لم يتركا وراءهما أثرا لم يتنبها اليه كان مفتاح القضية لرجال الامن .

(٣)

هال رجال الجامعات في أنحاء الولايات المتحدة ان يتدخل على هذا النحو اناس لا تربطهم بالحياة الاكاديمية صلة في مسألة جامعية نحته : وتحرك حشد من العلماء والاكاديميين يدافعون عن حرية البحث والاستقصاء العلمى . وهب لنصرة رسل مديرو الجامعات وكبار الاساتذة في طول البلاد وعرضها وكتب سبعة عشر عالما ممتازا خطابا لعمدة المدينة يحتجون فيه على « الهجوم المنظم على تعيين برتراند رسل الذى طبقت شهرته الافاق » واستطرد العلماء في خطابهم قائلين انه اذا سجع هذا الهجوم على رجل الفكر والفلسفة « فلن تكون هناك كلية امريكية او جامعة بآمن من سيطرة محاكم التفتيش التى يحركها أعداء الحرية الفكرية . انها لميزة نادرة لاي طلبة في اى مكان ان يتلقوا العلم على يد رجل له عقل برتراند رسل ، ويجب على نقاده ان ينازلوه في شرف على الارض المكتوفة ، ارض النقاش الفكرى والتحليل العلمى وليس لهم الحق في اسكاته بمنعه من التدريس ... والمشكلة التى تعرض لنا الان اجل من ان تقبل المساومة او التهاون بالمساومة فيها تعرض كل الاساس الذى تنبنى عليه حياة الجامعة الامريكية للخطر »

وتصدى صفوة العلماء والمفكرين للدفاع عن رسل وعلى راسهم اينشتين Einstein وديوى Dewey وهويتهد . وقد ذكر انشتين في هذا الصدد « ان الارواح العظيمة هى التى تجد دائما معارضة من التافهين والعاديين من الناس ، لانهم لا يستطيعون ان يفهموا ان انسانا يمكنه الا يخضع للعقائد المتوارثة ، وان يستخدم عقله في جراءة واقدام » .

ولم يكن الدفاع عن رسل قاصرا على رجال العلم والجامعات فقد ابرى للدفاع عنه عدد غير قليل من رجال الدين المستنيرين . والتف تسعة من الناشرين اللامعين حول قضية رسل واصدروا بيانا يمتدحون فيه تعيين الفيلسوف الكبير ويشنون على مجلس التعليم الاعلى لتوقيفه في هذا الاختيار . و اضاف الناشرون في بيانهم انهم لا يدينون بالضرورة بأراء الكتاب والمفكرين الذين يقومون بنشر كتبهم ، ولكنهم يشجعون العقول العظيمة ويرحبون بها حتى تغلب قوى العقل والحجى على قوى البغى والجهل والظلام . وكتبت دوروثى تومسون Dorothy Thompson في المقالات الافتتاحية لـ « ببلشرز ويكلي Publishers Weekly ونيويورك هيرالد تريبيون New York Herald Tribune تدافع عن خلق الفيلسوف العظيم فقد ذكرت تحت عنوان « اللورد رسل غير منحل الاخلاق » : « ان اى انسان يعرف رسل يعلم انه رجل يمتاز بأرفع مراتب الكمال الشخصى والتفوق العقلى » . وفى اجتماع عام نوه استاذ الفلسفة السابق بجامعة مدينسة

نيويورك والذي جاء رسل ليحل منخله بأفضاله وإياديه البيضاء على العلم والفلسفة . وقارن رسل بسقراط وذكر أن الغاء تعيين رسل سيكون وصمة عار في جبين مدينة نيويورك تملأ كما أصبحت محاكمة سقراط وأدائته تزعج أفساد الشباب وصمة عار في جبين أئتنا. ووقف أباء الطلبة وأولياء أمورهم في صف رسل فقد استحسننت جمعية الآباء باجماع الأصوات الخطوة التي خطتها هيئة التعليم الأعلى في اختيار رسل كأستاذ للفلسفة في جامعة مدينة نيويورك .

(٤)

وفي وجه التهديد الصارخ ، والغضب العام الذي اجتاحت الرأي العام ، فقد بعض أعضاء مجلس التعليم الأعلى أعصابهم . ولكن البعض الآخر ظل متمسكا في شجاعة واستبسال بحق المجلس في تعيين برتراند رسل دون تدخل أو ضغط أو تهديد . وفي اجتماع عقده المجلس بتاريخ ١٨ مارس أصرت أغلبية الأعضاء على موقفها السابق ، وأكدت تعيين رسل بأغلبية الأصوات (٧/١١) . وهكذا باءت المعارضة بالفشل في اعتراضها على تعيين الفيلسوف الكبير للتدريس بجامعة مدينة نيويورك . ولكن المعارضة لم تستسلم أو تلق بسلاحها أمام الهزيمة فقد عمدت الى محاربة رسل في كل الجبهات ، وسعت جاهدة حتى تحول بينه وبين التدريس بجامعة هارفارد التي كانت قد دعت له لاقاء سلسلة محاضرات فيها معروفة باسم محاضرات « وليم جيمس William James » وذلك في فصل الخريف الدراسي من عام ١٩٤٠ وفي يوم ٢٤ مارس كتب « توماس دورجان Thomas Dorgan الموكل التشريعي Legislative Agent لمدينة بوسطن الى جيمس ب . كونانت James B. Conant مدير جامعة هارفارد حينذاك يقول « أنت تعلم أن رسل يدافع عن رواج الصداقة والتجربة وحل الروابط التي تقيد السلوك الأخلاقي ، ورجائي أن تلاحظ أن استئجار مثل هذا الرجل ينطوي على اهانة لكل مواطن أمريكي في ماساشوسيت » .

وفي نفس الوقت تقدم المعارضون لرسل الى الهيئة التشريعية بولاية نيويورك يطلبون منها التدخل لدى مجلس التعليم الأعلى لإلغاء تعيينه . وبالفعل تقدم أحد أعضاء مجلس الشيوخ (سيناتور) الى هذه الهيئة التشريعية باقتراح يتضمن اعتبار « أن المدافع عن أخلاق زريبة الحيوانات شخص لا يصلح لأن يشغل وظيفة هامة في نظام التعليم في ولايتنا على حساب دافعي الضرائب » . ووافقت اللجنة التشريعية بالاجماع على هذا الاقتراح دون أن ينهض صوت واحد للاعتراض عليه .

وكان هذا القرار بمثابة خطوة بمهيديه لاتخاذ اجراءات اشد عنفا واكثر ضراوة ضد برتراند رسل ، وتاديب الأحد عشر عضوا في مجلس التعليم الاعلى الذين سولت لهم انفسهم المضي في الفى والضلال ، والاصرار على تعيين رسل غير عابئين بتيار المعارضة الجارف . وقام السيناتور جون . ف . دنيجان John F. Dunigan بدمغ فلسفته ووصفها بوصفها بأنها « تنتهك الدين والدولة والعلاقات العائلية » . وجار دنيجان بالشكوى من النظريات الملحدة السائدة بين ولاية الامور في مجالات التعليم في مدينة نيويورك . وازاف هذا السيناتور ان اصرار مجلس التعليم الاعلى على تعيين رسل رغم كل مظاهر معارضة الراى العام الشديدة امر يدعو الى القلق . وطالب دنيجان باجراء بحريات شاملة في نظم التعليم بمدينة نيويورك . واقرت الهيئة التشريعية مقترحات السيناتور دنيجان بعد ادخال بعض التعديلات الطفيفة عليها .

لم تكن هذه الاجراءات في حفيقة امرها تعدو ان تكون مناقشات مدنيه تمهد للحرب الشعواء التى شنها اعداؤه عليه ، فقد كانت اهم هذه المناورات على الاطلاق تلك التى قامت بها سيدة من بروكلين اسمها « جين كاي Jean Kay » التى ظهرت فجاء على مسرح الاحداث في مدينة نيويورك دون مقدمات اذ لم يسبق لها ان ابدت اى اهتمام بالشئون العامة . ورفعت هذه السيدة بوصفها دافعة ضرائب قضية في محكمة نيويورك العليا تهدف الى الفاء تعيين برتراند رسل في منصب التدريس بكلية المدينة . واستندت هذه السيدة في عريضة الدعوى الى شيئين : (١) ان رسل اجنبى فليس له تمة حق في العمل بالولايات المتحدة . (٢) انه مدافع عن الفسق والانحلال الجنسى واعلنت جين كاي امام القضاء عن قلقها البالغ عما قد يصيب ابنتها جلوريا Gloria لو انها تلقت العلم على يد هذا الرجل الفاسد . وفيما بعد ، اُضيف محامو هذه السيدة اعتراضين آخرين على تعيين رسل ، اولهما انه لم يجتز امتحان مسابقة كما تقضى بذلك اللوائح . وثانيهما ان السياسة العامة في الولايات المتحدة تتنافى مع الحاق اى انسان يعتنق الالحاد بوظيفة التدريس .

وكلت مسز كاي محاميا ينوب عنها لدى المحكمة اسمه جوزيف جولدشتين Joseph Goldstein وفي عريضة دعواه وصف هذا المحامى كتب برتراند رسل بأنها « فاسقة وداعرة وشهوانية ونكاحية ومصابة بلوثة الشيق ومشهية للجنس ، لا تقيم حرمة لشيء ، محدودة الافق ، غير صادقة وخالية من اى نسيج اخلاقى » . ولم يقف الامر عند هذا الحد فقد ذكر هذا المحامى ان رسل قام بتنظيم مستعمرة للعرأة في انجلترا ، وان اطفاله كانوا يقومون بعرض انفسهم عراة ، كما

ان رسل بعسه اشترك مع زوجته في عرض نفسيهما عاريين علنا وعلى مرأى من الناس . واضاف المحامى جولدشتين ان هذا الرجل المسن الذى يناهز السبعين من عمره يبدي اهتماما بالشعر الماجن الخليع . ولم يكتف جولدشتين بهذا القدر من التشنيع القاذع فقد ادعى ان رسل يفض الطرف عن الشذوذ الجنسى ، بل الادهى من هذا انه يقره ويوافق عليه . واخيرا اصدر هذا المحامى حكمه الدامغ على مكانة برتراند رسل بين الفلاسفة فقال :

« انه ليس فيلسوفا بالمعنى المقبول لهذه الكلمة . وهو ليس محبا للحكمة ولا باحثا عن الحكمة ، كما انه ليس بالمستكشف لذلك العلم الكونى الذى يستهدف تفسير سائر ظواهر الكون عن طريق الوقوف على اسبابها الاولى . وهو فى نظر الشاهد المحلف المائل امام المحكمة ، بل وفى نظر الكثرة من الناس الآخرين لا يخرج عن كونه سفسطائيا يمارس السفسطة . وهو يقوم عن طريق الحيل الماكرة والالاعيب واساليب الخداع بل مجرد المراوغة . بمجادلات زائفة لا تنهض على استدلال عقلى متزن . وهو يستخلص نتائج ، لا تستند الى أسلوب حق فى استنباطها من قضايا سليمة . ان كل المبادئ التى يزعمها والتى يطلق عليها اسم فلسفة ان هى الا خزعبلات وقضايا مسفة رخيصة مهلهلة تهدف الى تضليل الناس » .

والغريب فى الامر ان الدبلى نيوز نشرت خبرا مفاده ان رافعة الدعوى « جين كاي » قد امتنعت - وكذلك زوجها ومحاميها - عن الافضاء بأية معلومات من شأنها ان تلقى ضوءا عمن يتحمل نفقات هذه القضية .

وفى بدء حملة التشهير لاذ الفيلسوف الكبير بالصمت . وآثر الا يدفع عن نفسه الاتهامات واكتفى بالتعقيب على هجوم الاسقف ماننج المقلد بقوله : « اننى لا ارجب فى الرد على هجوم الاسقف ماننج . ان أى انسان يعقد العزم فى شبابه على الا يفكر والا يفوه بغير الحق على الرغم من كل مظاهر العداء التى تقابله ، وعلى الرغم من التحريف واساءة التصوير ، يتوقع مثل هذه الهجمات وسرعان ما يعلم ان افضل سبيل يسلكه هو تجاهلها » . وقال رسل انه شاء الصمت الذى يكاد يكون مطبقا ، وآثر عدم الاشتراك فى النقاش المحتدم حول تعيينه بجامعة المدينة لانه كان يعتقد انه ليس هناك ثمة علاقة بين ارائه فى هذا الامر وبين مسألة تعيينه المختلف عليها . ولكنه اضاف انه يرى نفسه مضطرا الى الخروج عن هذا الصمت امام وابل الاتهامات الباطلة التى يكيلها له معارضوه فى ساحة القضاء . قال برتراند رسل فى هذا الصدد « ولكن عندما تذاع بيانات باطلة عن افعالى تتصف بالبهتان الصارخ فى قاعة

المحكمة . اشعر انه يتعين على ان اكذبها . اننى لم انظم مستعمرة للعراة في انجلترا على الاطلاق ، كما انه لم يحدث اننى وزوجتى قد اشركتنا سويا في عرض أنفسنا عراة علنا امام الناس . واننى لم ابد مطلقا اهتماما بالشعر الخليع . هذه الاتهامات اكاذب مقصودة يجب ان يعرف الذين يوجهونها انها لا تستند الى اى اساس في الواقع وسأكون مسرورا اذا اتبحت لى الفرصة ان اقسم اليمين على بطلانها » .

ونظرت هذه القضية في محكمة نيويورك العليا امام القاضى ماك جيهان McGeehan وادلى نيكولاس بونشى Nicholas Bucca بشهادته في المحكمة كممثل لمجلس التعليم الاعلى وعيضا حاولت المحكمة ان تزج به في نقاش حول آراء رسل الشريرة الفاسدة او عدم كفاءته فقد اصر بونشى ان يقصر شهادته على الجانب القانونى من القضية التى تتناولها المحكمة ويتلخص في اعتبار تعيين رسل في جامعة امريكية عملا غير قانونى بوصفه اجنبيا عن البلاد . واتكر بونشى عدم قانونية التعيين . واكد انه نص في القانون غير معمول به ، كما طلب من هيئة المحكمة رفض الدعوى المقدمة اليها . لكن القاضى ماك جيهان اجابه بطريقة تنذر بالشر انه اذا وجد في كتب رسل ما يؤيد صحة الاتهامات الموجهة اليه فلن يقف الامر عند هذا الحد . وهذه الكتب التى اشار اليها القاضى هى التى اوردها المحامى جولد شتين في عريضة الدعوى التى اقامها برتراند رسل وهى : « التعليم والحياة الطبية » ، و « الزواج والاخلاق » ، و « التعليم والعالم الحديث » وما اعتقده ،

(٥)

وبعد انقضاء يومين . في ٣٠ مارس على وجه التحديد ، نطق القاضى ماك جيهان بالحكم . قال القاضى انه اقام حكمه على « أنماط ومبادئ » هى في واقع الامر قوانين الطبيعة ... الطبيعة التى خلقها الله » وتضمن حكم القاضى الفاء تعيين برتراند رسل في وظيفة مدرس للفلسفة بجامعة مدينة نيويورك . ووصف القاضى هذا التعيين ، كما وصفه الخطباء من رجال الدين من قبل بأنه اهانة لاهل مدينة نيويورك . واضاف القاضى ان مجلس التعليم الاعلى بتعيينه لبرتراند رسل انما بنشئ في واقع الحال كرسيا في الجامعة لقلة الحياء ، كما وصف تصرف هذا المجلس بأنه تعسفى ، طائش ، قائم على النزوات ، وأنه انتهاك صريح للامن العام والصحة العامة والاخلاق العامة . وايد القاضى حق المدعية في افامة دعواها وفي حقها في استصدار امر من المحكمة بالغاء تعيين المدعو برتراند رسل . وقد اعترف القاضى - كما ورد في جريدة الصندى ميرور بأن حكمه كان في عنفه وتفجيره بمثابة الديناميت

واشارت « جريدة الجمهورية الجديدة » الى السرعة البالغة التي اصدر بها القاضى حكمه ، ووصفتها بأنها سرعة تفوق سرعة البشر . وابدى الفيلسوف الامريكى المعروف « جون ديوى » شكه فى ان يكون القاضى قد قرا بالفعل الكتب التى اوصى محامى الادعاء « جوزيف جولدشتين » المحكمة بقراءتها . كان من الواضح انه يتعذر على أى انسان ان يفرغ من قراءة هذه الكتب ودراستها دراسة وافية فى ظرف يومين ، فما بالك بكتابة تقرير مستفيض عنها كالدى كتبه القاضى فى هذه المدة الوجيزة . وكان من الواضح ايضا ان القاضى ماك جيهان لا يراعى أبسط قواعد العدالة او الذوق ، فقد اصدر حكمه دون ان يكلف خاطره عناء الرجوع الى برتراند رسل نفسه حتى يتأكد من ان الصواب لا يجانبه عند تفسيره لآرائه ، وحتى يتأكد ان فهمه لا يغير حقيقة قصد الفيلسوف . أضف الى ذلك أنه لم يحاول أن يستيقن من أن رسل نفسه لا يزال يعتقد ذات الآراء التى سبق له ان عبر عنها فى كتب له مضى عنى كتابتها ما بين ثمانية اعوام وخمسة عشر عاما .

لقد بلغ تجاوز القاضى لحدود الذوق العام الدرجة التى اغفل معها شهادة نيكولاس بوتشى ، ممثل مجلس التعليم الأعلى الذى اصدر قراره بتعيين برتراند رسل . وزعم القاضى أن بوتشى قد ابلغ المحكمة انه لن يدلى بشهادة أمامها . واقسم بوتشى على بطلان هذا الزعم ، وانكره انكارا تاما واضاف انه فهم من القاضى ان المحكمة لن تسمح له بالادلاء بوجهة نظر مجلس التعليم الأعلى الا اذا انكر انه طلب من المحكمة رفض النظر فى هذه القضية .

لقد تخلل محاكمة برتراند رسل فى نيويورك الكثير من المحالقات القانونية الصارخة ولكن هذه المخالفات نبون وتتضاءل امام سيل الهجوم الشديد الذى تضمنه حكم المحكمة ضده . ان نص هذا الحكم ان دل على شيء فانما يدل على ما يمكن ان ينحدر اليه القضاء فى دولة تزهو بحريتها وديموقراطيتها ، وخاصة عندما يؤازره الساسة ذوو النفوذ والسلطان ويشدون من عزمه . لقد استطاع القضاء الامريكى فى قضية رسل ان يمسح الحقائق ويشوهها بطريقة سافرة للغاية . وكان القاضى ماك جيهان يتلمس السبل لادانته بكافة الطرق ومن بينها استتهاده عمدا ببعض الفقرات من كتاباته دون ذكر السياق الذى وردت فيه ، وعرضها بشكل شائه مبتور من شأنه أن يصل الى نتائج وآراء تتناقض تماما وما يرمى اليه الفيلسوف الكبير .

استند القاضى فى اصدار حكمه الذى يقضى بالغناء تعيين برتراند رسل فى جامعة مدينة نيويورك الى ثلاثة أسباب : اولها ان رسل اجنبى . -لها ان الجامعة لم تعقد له امتحان مسابقة كما نقضى

اللوائح بذلك ، تألثها أن آراءه في الأخلاق هدامة وتشكل خطرا داهيا على الأخلاق العامة .

ولنبحث الآن ما ورد في حكم القاضي بالتفصيل بالنسبة لهذه النقاط الثلاث :

بالنسبة للسبب الاول ذكر القاضي ان قانون التعليم الأمريكي ينص على انه لا يحق لاي فرد أن يزاول مهنة التدريس في مدارس الدولة العامة اذا كان لا يحمل الجنسية الأمريكية ولكن القانون أباح للأجنبي حق الاشتغال حتى في هذه المدارس اذا كان يعتزم انتجنس بالجنسية الأمريكية . لقد جانب القاضي الصواب في عدة أمور فيما يتعلق بهذا السبب (أولا) لان القانون ينص صراحة على الاشتغال بمدارس الدولة ولا يشير الى الجامعات فلو طبق هذا النص بالفعل لكان معناه الاستغناء عن خدمة جل الاساتذة الذين يشتغلون بالتدريس في جامعة مدينة نيويورك لانهم اجانب ، ولانهم لم يتخرجوا في مدارس تابعة للدولة تم لانهم لم يحصلوا على تصريح من السلطات التعليمية قبل التحاقهم بوظائفهم . (ثانيا) لانه ليس من حق القاضي أن يتكهن ، كما فعل . بأن برتراند رسل لا يعتزم طلب الجنسية الأمريكية ، فإمامه - كما ذكر ممثل مجلس التعليم الأعلى - عام بأكمله يستطيع خلاله أن يطلب من ادارة الهجرة والجوازات أن تمنحه الجنسية الأمريكية . (ثالثا) لأن القاضي كان دائب القول أن رسل شخصية فاسدة . وهذا في الواقع أمر لا يحدده أحد غير ادارة الهجرة والجوازات . ولو كان اتهام القاضي لبرتراند رسل صحيحا لكأنت ادارة الهجرة والجوازات قد طلست منه مفادرة البلاد ، وهذا ما لم يحدث قبل التمييز أو بعده .

أما السبب الثاني في إلغاء تعيين رسل ففحواه أن رسل لم يجتز كما تقتضي اللوائح والقوانين التعليمية امتحان مسابقة يؤهله لشغل الوظيفة الشاغرة . ولاشك أن هذا السبب مجرد ذريعة لا أكثر ولا أقل ، فالقانون ينص صراحة على تخويل مجلس التعليم الأعلى سلطة التمييز اذا لم يكن في الامكان من الناحية العملية عقد امتحان مسابقة للمرشحين للتدريس في الجامعة . فالأمر إذن أولا وآخره موكول الى مجلس التعليم الأعلى يقرر ما يشاء على ضوء الظروف والحالات الخاصة بكل مرشح . وفي هذا الصدد ، قال القاضي في حكمه انه يرفض زعم مجلس التعليم الأعلى بأن عقد امتحان مسابقة لرسل غير ممكن من الناحية العملية ، ووصف هذا الزعم بأنه طائش وتمسفى وأنه يتعارض تعارضا صارخا مع دستور ولاية نيويورك . وعلق القاضي على ترشيح واختيار جامعة مدينة نيويورك لبرتراند رسل بالدات بقوله انه لو كان رسل هو الانسان الوحيد في العالم الذي يستطيع تدريس الفلسفة والرياضة لجاز تعيينه دون امتحان مسابقة ، ولكن يصعب على المرء أن يصدق

انه لا يوجد امريكي واحد في سائر الولايات المتحدة على درجة من الكفاءة تؤهله لشغل الوظيفة الخالية عن جدارة واستحقاق . والذي لا شك فيه ان مطالبة القاضي بعقد امتحان مسابقة لرسل اجراء ينطوى على التعسف ، وهو محاولة واضحة من جانب القاضي لايجاد تعلقة قانونية يعرقل بها تعيين الفيلسوف الكبير . فلو كان امتحان المسابقة ضروره قانونية لكان معنى هذا ، التخلص من عدد كبير من اساتذة الجامعة في مدينة نيويورك لعدم قانونية تعيينهم ، ولاستحقت الجهات التعليمية المسئولة توقيع العقاب عليها لمخالفتها الصريحة للوائح والقوانين سماحها لمثل هذا العدد الكبير بمباشرة التدريس في الجامعة دون استيفاء مسوغات التعيين القانونية . ولكن الواقع الذي تجرى عليه الجامعات يفاير ما أصدره القاضي ماك جيهان من احكام اذ انه من الثابت انه يحق لمجلس التعليم الاعلى تعيين من يثق في قدرتهم على اداء وظيفتهم التعليمية دون الرجوع لاحد وبغض النظر عن كونهم اجانب ، ومع عدم التقيد بالنص الخاص بامتحان المسابقة اذا كانت الظروف لا تسمح بعقده . والكل يعرف ان المعاهد التعليمية العليا في أمريكا كثيرا ما تستعين بخدمة الاجانب بشكل ملحوظ . ولعل حادثة تعيين الفيلسوف الكاثوليكي المعروف جاك مارتين Jacques Maritain وهى ليست بالبعيدة العهد من تعيين رسل - تدل بجلاء ان تعيين الاجانب في جامعات أمريكا ليس بدعا ، فقد تم تعيين هذا الفيلسوف المشهور على الرغم من انه اجنبى وعلى الرغم من انه لم يتقدم بطلب الى ادارة الهجرة والجوازات كى تمنحه الجنسية الامريكية . ومع هذا كله لم يفكر احد في عقد امتحان مسابقة له ، كما ان احدا من دافعى الضرائب الامريكان لم يفكر في رفع قضية ضده لوقف تعيينه . وهذا يدل بشكل قاطع ان المسألة في حالة رسل لم تكن تعدو ان تكون محاولة من جانب القضاء يعضده الساسة ذوو النفوذ لايجاد الدرائع والمبررات القانونية الشكلية لابطال تعيينه .

اما السبب الثالث والآخر - وهو اجل الاسباب واطورها جميعا - الذى استند اليه القاضي في الفاء التعيين فيتلخص في كون برتراندرسل شخصية منحلة فاسدة . وقد اعترف القضاى نفسه ان هذا السبب الآخر هو اقوى سبب حمله على الفاء تعيين رسل على الاطلاق . وفي الحكم الذى أصدره ماك جيهان ، هاجم اخلاق رسل الخاصة واستعمل في هجومه لغة عنيفة قاسية فوصمه باقذر النعوت . واختف من لفته تماما لهجة الاعتذار التى كانت واضحة عند سرده للسببين الاولين ، فرسل في نظر القاضي لا يخرج عن كونه رسولا للفسق والانحلال مهما حاول مجلس التعليم الاعلى تبرئته او الدفاع عنه . واكد ماك جيهان فاد شخصية رسل واعتبره بؤرة للعريضة والانحلال ، ورفض ان يقلل

ما أسماء ذريعة مجلس التعليم الأعلى القائلة بأن شخصية رسل وآرائه أمور لا دخل لها في الوظيفة التي سيشغلها في الجامعة إذ أنه سيقوم بتدريس الرياضة . لم يجد هذا القول مع القاضي فتيلًا فقد انبرى للهجوم على أخلاق برتراند رسل والنيل منه ، واستولى على القاضي غضب مقدس وأعلن أن التدريس مهنة تقتضى توفر الخلق القويم في أمر القائم بها ، كما أعلن أن التدريس لا يقتصر على امداد الطلبة بالمعلومات فالمدرس قبل كل شيء وفوق كل شيء يحتذى وقوة تضى لغيره السبيل . وهذه الصفات الحميدة لا تتوفر في برتراند رسل بأي حال من الأحوال .

ويجب ان نذكر في هذا الصدد ، انصافا للقاضي ، انه لم يشأ أن يتعرض لهجوم برتراند رسل على الدين . وكانت هذه هي الناحية الوحيدة التي أظهر فيها ماك جيهان سماحة في معاملة رسل . وقصر القاضي هجومه على تأكيد فساد شخصيته من ناحية وفساد آرائه الأخلاقية من ناحية أخرى . ومن الغريب أن القاضي امتنع عن سرد أى من الأسباب التي دعت الى شن حملته الشعواء على فساده الشخصى وكان فى نظر ماك جيهان ان مبادئ رسل غير الأخلاقية أشد خطرا على الأخلاق العامة من فساده الشخصى . ولكي يثبت صحة رأيه التجأ القاضي الى كنبه يقتطف منها بعض الفقرات التي نروى ظمأه الى الانتقام دون التعرض للسياق التي وردت فيه وقال ان كتب رسل مليئة بالمبادئ الداعرة وعفف من أن يذكر القذارة التي تستشرى فيها بالتفصيل .

ان محاكمة رسل تذكر الانسان بمحاكمة سقراط فى أتيينا فى القرن الخامس قبل الميلاد . ففى سن السبعين وقف سقراط وقفته المهيبة أمام جلاديه الذين لم يتورعوا عن كيل أبشع التهم له ، ومقادها (١) أن سقراط ينكر الآلهة القومية (٢) أنه يدعو للإيمان بآلهة جدد من صنعه (٣) أنه يفسد الشباب بتعاليمه المنافية للأخلاق . وقد أثبت لنا الحق خطأ هذه الاتهامات فسقراط فى أذهاننا مثل أعلى للفضيلة والإيمان بالله .

واذا كانت سماحة القاضي ماك جيهان مع رسل قد جعلته لايتبرأ الى الاتجاهات اللادينية فى تفكيره ، أو أن يستغل ماعرف عنه من الحاد ، فانه تعمد أن يؤكد ضده التهمة الثالثة التي حوكم سقراط بمقتضاها بشكل مقرر للنفس وهي أن رسل منحل الخلق ويشكل خطرا على الأخلاق العامة . وكما قابل سقراط سلفه العظيم محاكمته برباطة جأش منقطعة النظر ، فقد وقف رسل ثابت الجنان ، كالطود الأشم ، يجابه التهم الزائفة التي كيلت له زورا وبهتانا دون أن تهتز شعرة واحدة من رأسه ودون أن يعرف الخوف الى قلبه سبيلا . وهكذا وقف رسل مرفوع الهامة

أمام الديماغوجية التي حاولت أن تظهره بمظهر الفاسق المتهتك ، وأثبت
سليل النبلاء أن فرائضه لا ترتعد أمام قوى البغي والظلام .

ولكن الأصوات الحرة لم تسكت على هذا الهجوم الشائن فقد كتب
جون ديوى عالم التربية المعروف مقالا فى « الأمة » معلقا على القذارة التي
يقول القاضى أنها تلوث كتابات رسل ، أن الناس - اذا كان هناك مثل
هؤلاء الأشخاص - الذين يقرأون كتابات مستر رسل بحثا عن القذارة
سيمنون بخيبة أمل ، . وأضاف ديوى أن الطريقة التي عومل بها رسل
والإتهامات البشعة التي كملت له تجعل المرء يعتقد أنه لو كان بيد القائمين
بالأمر السلطان الكافى لما توانوا عن اضطهاد المناقشات الحرة الناقدة فيما
يتعلق بالعقائد والعادات التي يريدون فرضها على الناس قسرا . وكتب
البعض معلقا على لغة القاضى التي تحدث فيها عن القذارة وكبرى قلة الحياء
بقوله ان هذه الألفاظ لو استعملت خارج قاعة المحكمة لكانت كفيلة بإتهام
قائلها بالتشهير والقذف .

ويبدو أن القاضى كان شاعرا بأن ما جاء فى حكمه من وقائع لا يكفى
لتبرير تدخله فى تعيين برتراند رسل فهو أمر تقرره الهيئات العلمية
وحدها . لم يكن يكفى القاضى أن يثبت أن آراءه منحلة فاسقة حتى يتوفر
لديه المبرر لممارسة الضغط على هذه الهيئات التي خولها التشريع الحرية
المطلقة فى اختيار من يشاء من أساتذة الجامعات . ولكنه أشار الى حق
السلطات القضائية فى الاعتراض على هذا الاختيار اذا هى رأت أنه ينطوى
على انتهاك قانون العقوبات وتدنيس الاخلاق والفضائل العامة والا اعتبر
هذا اساءة لاستعمال الحقوق من جانب السلطات التعليمية المسئولة .
وذكر القاضى أن من حق دافعى الضرائب أن يتأكدوا من أن أساتذة الجامعة
المختارين لا يعبتون بمقدسات المجتمع وقيمه الخلقية ومن واجب الهيئات
القضائية أن ترعى هذا الحق وتولييه اهتمامها .

وعندما ساق القاضى قانون العقوبات وسرد نصوصه بالتفصيل ،
كان من الواضح أنه يهدف الى اقامة علاقة فى أذهان الناس الذين لم يطلعوا
على كتب رسل بين فلسفته وبين التحريض على ارتكاب الموبقات وجرائم
الجنس كخطف العذارى واغتصابهن والزنا . واستفاض القاضى فى
اعتراضه على ما أكدته مجلس التعليم الأعلى من أن برتراند رسل سينكرس
وقته لتدريس الرياضة فى الجامعة فليس هناك مبرر اذن للتخوف . ورد
بأن وجود شخصية رسل فى أى مجال تعليمي ينطوى على خطر داهم وشر
مستطير . فلو كان رسل انسانا عاديا لما كان هناك ما يدعو للتخوف
والحيطة والفرع . ولكن رسل انسان ذكى موهوب . وحتى لو اقتصر
على تدريس الرياضة فسيكون أثره الشخصى كبيرا وسيقع الشباب الغرير
المفتون فى شباك شخصيته اللامعة القوية الساحرة ، وسيسعى الشباب
لمعرفة كافة ما يتصل به ، وسيعمل على محاكاته .



الفيلسوف المعاصر برتراند راسل

لقد كان القاضي يتلذذ لالغاء تعيين برتراند رسل بأن شباب الجامعة وخاصة من هم دون الثامنة عشرة ، سيتأثرون حتما بأرائه الهدامة ، وبأنهم سينحرفون عن الطريق القويم ، ويرتكبون سائر الجرائم والموبقات الجنسية. ولو كلف القاضي خاطره واطلع على التقارير المكتوبة عن رسل عندما مارس التدريس في إنجلترا والصين والولايات المتحدة لما تورط في هذا الشطط ، ولأدرك أن كل المعاهد العلمية التي علم فيها تحمل له أرفع آيات الاكبار والاعجاب والتقدير . ولكن القاضي شاء أن يغفل هذه التقارير رغم أنها كانت تحت تصرفه في أى وقت .

وفي الوقت الذي كان يتعرض فيه الفيلسوف العظيم لحملات التنكيل والتشهير ، أبرق لقيف من مديري الجامعات التي سبق له أن اشتغل فيها يؤيدون تعيينه ويكيلون له الثناء والمدح على ما قام به من خدمات تعليمية جليلة . وتطوعت مارجورى نيكلسون Margorie Nicolson عميدة كلية سميث باصدار بيان ذكرت فيه أنها حضرت سلسلة من المحاضرات التي القاها رسل في المجلس البريطاني للدراسات الفلسفية يتعرض فيها الفيلسوف مطلقا لأرائه الخاصة في الزواج والطلاق والايمان والاحاد . فقد كان كلامه قاصرا على تدريس الفلسفة الصرفة . وأضافت مارجورى أنه لم يكن ليتسنى لها أن تعرف شيئا خلال هذه المحاضرات عن آراء رسل الخاصة لو لم تتعرض لها الصحافة بالمبالغة والتهويل .

- ٦ -

عندما اصدر القاضي ماك جيهان حكمه ضد برتراند رسل منى المشايعون له بخيبة أمل شديدة ، ولكن الغبطة الجارفة عمت معارضيه . وكان اخشى ما يخشاه اصدقاء الفيلسوف العظيم ان يحجم مجلس التعليم الاعلى بضغط من الساسة ذوى النفوذ عن استئناف هذه القضية امام محاكم اعلى . واثبتت الاحداث ان هذا التخوف كان ينهض على أساس من الواقع . ولكن اصدقاء حرية الفكر لم يسهلوا عن اضهاد الفيلسوف السافر المشين وهبوا يدودون عنه فأجتمع في مدينة شيكاغو المجلس القومى للجمعية الأمريكية لاساتذة الجامعة . وأجمع اعضاء المجلس عن بكرة أبيهم على اصدار قرار يستحثون فيه لاجارديا La Guardia عمدة مدينة نيويورك ، ومجلس التعليم الاعلى لحاربة الحكم الذى أصدره القاضي ماك جيهان ضد برتراند رسل . وتوالى تأييد رسل من مختلف الهيئات العلمية ، ومن بينها الجمعية الأمريكية للباحثين العلماء ، وجمعية التعليم العام ، وتشكلت لجنة خاصة تبنت الدفاع عن قضية حرية البحث العلمى . واطلقت هذه اللجنة على نفسها اسم « لجنة برتراند رسل للدفاع عن الحرية الاكاديمية » تحت رئاسة بعض كبار اساتذة الجامعات . واشترك في حملة الدفاع عن الفيلسوف

المضطهد لفيف من أئمة العلماء والمفكرين في كل أنحاء أمريكا . وأرسلت جمعية الحرية الثقافية برقية الى لاجارديا عمدة المدينة ورد فيها أن القاضي أظهر رسل بمظهر مشين . وأضافت اللجنة أن هذا الاتهام الصارخ لا أساس له من الصحة إذ أنه من السهل جدا اثبات خطأ هذا الزعم عن طريق الرجوع الى شهادة مديري الجامعات الأمريكية التي يباشر رسل التدريس فيها .

وعقدت اللجنة الأمريكية للدفاع عن الديمقراطية والحرية الفكرية اجتماعا للاحتجاج على قرارات القاضي ماك جيهان المجحفة . وتوالى في الاجتماع خطباء لهم وزنهم العلمي وأعربوا عن احتجاجهم على هذا الوضع الشائن . وحتى في جامعة مدينة نيويورك نفسها التي كان من المقرر تعيين رسل فيها عقد اجتماع حافل كبير خطب فيه عديد من الشخصيات الجامعية البارزة ، وأعربوا عن سخطهم الشديد على المعاملة التي عومل بها رجل الفكر العظيم . وذكر أحد الخطباء من رجال الفكر في الجامعة أنه ان لم تتمتع أية جامعة تنفق عليها الدولة بحرية البحث العلمي ، لانتهى الأمر بتوقف التقدم الفكرى في الحياة الأمريكية.

لقد كان القضاء الأمريكى نفسه في بعض الجهات الاخرى من الولايات المتحدة أكثر كرما وأشد رحابة صدر مع برتراند رسل . فعندما كان رسل يدرس بجامعة كاليفورنيا اعترض عليه قسيس سابق وتقدم في ٣٠ أبريل الى محكمة الاستئناف في لوس انجلوس يطلب منها التخلص من برتراند رسل وتنحيته من جامعة كاليفورنيا نظرا لمبادئ الهدامة ، ولكن المحكمة رفضت رفضا باتا أن تنظر في هذا الطلب وأهملته كلية كأن شيئا لم يكن .

- ٧ -

لسنا بحاجة الى القول بأن حكم القاضي ماك جيهان قد قوبل بالثناء العاطر من المعارضين لبرتراندرسل ، الذين مجدوا في هذا الحكم بطولته وشرفه . ووصفت جريدة اليسوعيين الأسبوعية « أمريكا » ، القاضي بقولها انه أمريكى حق ، فيه رجولة الأمريكى الصميم وقوته . وهو فوق كل هذا قاض شريف ونظيف وثقة من ثقات القانون . وذكرت الصحافة المؤيدة للقاضي أنه متدين عقلا وروحا . وأضافت أن برتراند رسل قد جانب الصواب عندما وصف القاضي بأنه شخص جاهل للغاية، فهذا يغاير الواقع تماما . ان عقل ماك جيهان وقاد ، لامع في الدراسات الكلاسيكية فهو يقرأ هوميروس في نصه الاغريقى ، كما يستمتع بهوراس وشيشرون في أصلهما اللاتينى . وذهب حمس رئيس جمعية المدرسين الكاثوليك للحكم الصادر ضد رسل لدرجة أنه وصفه بأنه « نصر مجيد

في تاريخ القضاء ونصر عظيم لقوى الاحتشام والاخلاق كما انه انتصار
للحرية الاكاديمية الحقّة » .

وبدا من الواضح أن برتراند رسل ليس بالشخص الوحيد الذي
يستحق توقيع العقوبة عليه . فغالبية اعضاء مجلس التعليم يستحقون
انزال العقوبة بهم لانهم جميعا مشتركون في مسؤولية تعيينه . واحتشدت
قوى اليمين في أمريكا وعقدت اجتماعا تعاقب فيه الخطباء . وفي هذا
الاجتماع هوجم جون ديوى ومسز فرانكلين د. روزفلت لتبشيرهما
بمذهب التسامح السقيم . وفي نفس الاجتماع خطب رئيس اللجنة
القومية للانتعاش الدينى ، وندد بأغلبية اعضاء مجلس التعليم الاعلى
ووصفهم بأنهم منحلون وطالب بطردهم من مراكزهم واستبدالهم بأناس
آخرين ما زالوا يؤمنون بوطنهم ودينهم . ونهض تشارلس كيجان الذى
سبق له ان سب رسل والحقه في هذه المرة بالطابور الخامس الذى
ساعد النازيين على احراز انتصاراتهم واتهمه بأنه شيوعى ما في ذلك
ريب . وطالب هذا الرجل بطرد اعضاء مجلس التعليم الاعلى وتعيين
اناس افضل يخدمون مدينتهم بشرف اكثر . وفي نفس الوقت قام
اليمينيون بحملة ضخمة واسعة النطاق لتوعية الامريكان بالدلول
الحقيقى لكلمة (الحرية) ولوضع حد للمحاولات التى يقوم بها اعداء
الحرية لطعنها من الخلف .

- ٨ -

كان موقف جريدة النيويورك تيمز Newyork Times من
قضية برتراند رسل موقفا لا يتفق بحال من الاحوال والسياسة العامة
المتحررة التى تفخر هذه الجريدة باتباعها . ولكن يبدو أن الجريدة
تحتفظ باستقلالها في الموضوعات المحتدمة التى لا تخضع لسطان رجال
الدين وهيمنتهم . ففي المحنة التى اجتازها الفيلسوف تعمدت هذه
الجريدة أن تلوذ بالصمت المطبق ، وامتنعت عن الادلاء بأى تصريح ، كما
امتنعت عن التعليق على الموقف اثناء المحاكمة . ولكن بعد انقضاء ثلثه
أسابيع من محاكمة رسل ظهرت هذه الجريدة في عددها الصادر بتاريخ
٢٠ أبريل متضمنة خطابا من مستر تشيس Chase مدير
جامعة نيويورك يهاجم فيه موقف القاضى ماك جيهان ، كما يبين فيه
الخطوة التى تنطوى عليها هذه السابقة بالنسبة لحرية الفكر الامريكى
وتهددها لاستقلال الجامعات والمعاهد العليا .

ولم تر هذه الجريدة مناصا من الاشتراك في المعركة المحتدمة حول
تعيين برتراند رسل . فكتبت مقالا افتتاحيا تقول فيه انها تنظر الى
ماحدث في هذا الموضوع بعين الاسى والالم . ولكن الجريدة انحلت على رسل
باللائمة لقبوله الوظيفة في مثل هذه الظروف . وأضافت ان الحكمة

كانت تقتضى منه الامتناع عن قبول الوظيفة المعروضة عليه اذ كان واضحاً انها ستثير عليه ثائرة وحنق قطاعات ضخمة من الامريكان . صحيح أن رسل استاذ مشهود له بالكفاءة والعلم الغزير . ولكن السخط العام الذى تثيره آراؤه فى الاخلاق يدل بوضوح على قصر نظر مجلس التعليم الاعلى فى تعيين رسل اصلاً ، وقصر نظر رسل نفسه لقبوله هذا التعيين فيما بعد فلو كان على قدر كاف من الحكمة لقرر الانسحاب الصامت من مسرح الأحداث .

وكتب برتراند رسل رسالة الى جريدة النيويورك تيمز نشرت فيها بتاريخ ١٦ ابريل قال فيها رسل ان انسحابه فى الواقع كان امراً تقتضيه الحكمة لو انه كان يبغى راحته الخاصة ، فقد كان هذا الانسحاب سيوفر عليه شقوته والله فى هذه التجربة المريرة . وأوضح رسل السبب الذى دفعه لعدم التنجى عن هذه الوظيفة والصمود امام تيار الراى العام الجارف ، فقال انه صمم على عدم التنجى لشعوره الدائب بان انسحابه سيكون بمثابة خذلان لقطاع من الامريكان المؤمنين بحرية الفكر والمناضلين من اجل حرية الكلمة ، فقد كان هؤلاء الناس يضعون رجاءهم فى استمراره فى المقاومة والوقوف امام تيار المعارضة العاتى . ان التراجع فى نظره كان يعنى الجبن والانانية ، والتسليم بحق المعارضة اذا كانت كبيرة فى استبعاد القلة من الناس التى لا تعمل اليها من وظائف الدولة العامة بسبب آرائها او عنصرها او جنسيتها .

وفى هذا الخطاب اشار برتراند رسل فى فخر وزهو الى الدور العظيم الذى لعبه جده جون رسل فى مطلع القرن التاسع عشر فى تأكيد حقوق الاقليات الدينية وتدعيم مصالحها فقد استطاع اللورد رسل أن يخلص انجلترا من القوانين السائدة التى تقوم على التحيز والتمييز بين الطوائف الدينية المختلفة . كان القانون الانجليزى يحرم على اى انسان الاشتغال بالوظائف العامة الا اذا كان عضواً فى كنيسة انجلترا . وكان هذا القانون بطبيعة الحال ينطوى على اضرار بمصلحة الاقليات من الطوائف الخارجة على كنيسة انجلترا .

وختم برتراند رسل خطابه بقوله ان الروح الديموقراطية الحققة تتلخص فى ان تتعود الاغلبية على ان ترى عواطفها تمتحن دون أن يكون هذا الامتحان سبباً فى استيلاء سورة الفضل عليها مما يجعل التسامح مع الأقلية التى تسيء الى شعور الاغلبية شيئاً مستحيلاً .

- ٩ -

من الأمور التى تدعو الى الأسف أن عمدة مدينة نيويورك «لاجارديا» والقاضى ماك جيهان بذلا قصارى جهدهما للحيلولة دون استئناف هذه القضية امام محاكم اعلى ، وتفتق ذهنا العمدة والقاضى عن حيلة مكررة

لتفويت كل فرص العمل على برتراند رسل ، وإبعاده عن منصب التدريس بكافة الطرق . وكان مسلك العمدة يتصف في مظهره بالبراءة والسداجة ولكنه كان يحمل السم الزعاف في طياته . فقد عمد العمدة الى شطب ميزانية كرسي الفلسفة الشاغر الذي كان رسل يزعم شغله . وعندما نشرت الميزانية العامة لجامعة مدينة نيويورك لاحظ بعض المراقبين اختفاء ميزانية الوظيفة التي احتدم الخلاف حولها . فما الذي حدا بالعمدة أن يفعل هذا ؟ كان العمدة يريد أن يتأكد من أن برتراند رسل لن يعود الى وظيفته بجامعة مدينة نيويورك حتى لو حكم الاستئناف في صالحه . وبلغ اضطهاد برتراند رسل مدى أبعد وأعنف فقد اشترط المسؤولون في جهات جامعية أخرى استبعاد ترشيحه عند تقرير ميزانيات الجامعات والمعاهد العلمية العليا .

وبطبيعة الحال استاء مجلس التعليم الأعلى من تدخل العمدة في شئون المجلس الخاصة على هذا النحو السافر ، كما استاء من الحيلة التي لجأ اليها لضمان استبعاد رسل من التدريس بالجامعة . وأراد المجلس أن يستأنف القضية مهما كانت الظروف . ورفض الممثل القضائي للمجلس أن يتحرك لاستئناف القضية رغم اقتناعه بعدم قانونية حكم القاضي ماك جيهان وعدم شرعية الإجراءات التي اتخذها العمدة ، ونصح المسؤولين في المجلس بأن يقفوا بالقضية عند ذلك الحد نظرا لطبيعة القضية الحساسة التي تهيج خواطر الناس وتثير حفيظتهم . وأمام خذلان الممثل القضائي الرسمي لمجلس التعليم الأعلى اضطر المجلس الى البحث عن محامين من الخارج يتولون المرافعة في محكمة الاستئناف وتطوعت شركة أمريكية من المحامين للدفاع عن رسل مجانا . ولكن القاضي في محكمة الاستئناف رفض أن يعترف بهذه الهيئة الدفاعية الجديدة بدلا من المندوب القضائي الرسمي الذي ينوب عن مجلس التعليم الأعلى . وبهذه الخطوة بات واضحا أن المؤامرة المحكمة ضد الفيلسوف قد اجتمعت خيوطها في نسيج من الالتواء القانوني ، كما بات واضحا أن مجلس التعليم الأعلى قد أصبح عاجزا عن أن يفعل شيئا في سبيل إلغاء حكم القاضي ماك جيهان الجائر .

وأراد برتراند رسل أن يستخدم محاميا خاصا للدفاع عن سمعته التي لوئت ، وشرفه الذي لطخ في الرغام ولكن محكمة الاستئناف رفضت باعتبار أنه ليس لرسل مصلحة قانونية في هذه القضية . وأمام هذا الاجحاف وجد رسل نفسه على طريق مسدود . ومن العجب العجيب أن تعتبر المحكمة أن لجين كاي مصلحة قانونية فتسمح لها برفع قضيتها ضد رسل ثم تنكر محكمة الاستئناف حق الفيلسوف في الدفاع عن نفسه وحماية سمعته من التلويث الذي أصابها بزعم أنه ليس له مصلحة قانونية في القضية .

لقد كان اضطهاد رسل سافرا وقحا لدرجة أن فيلسوف التربية المعروف جون دبوى قال معقبا على هذه الاجراءات التعسفية : « نحن الأمريكين لا نملك الا أن يتشرح وجهنا خزيا وعارا لهذه الوصمة التي لطخب سمعة عدالتنا » .

- ١٠ -

بعد أن انتهى رسل من مدة التدريس المحددة له في جامعة كاليفورنيا شد رحاله الى جامعة هارفارد المعروفة . ولم يقيم المسئولون في جامعة هارفارد وزنا لاعتراضات القادحين وذهمهم ، وبتهجم الرجعية الصارخ عليه فقد أصدرت الجامعة بيانا تقول فيه انها بعد أن احاطت علما بالنقد الموجه الى تعيين برتراند رسل قد ايقنت بعد استعراض الموقف وسائر الظروف انه من مصلحة الجامعة العليا أن تؤكد قرار تعيين الفيلسوف الكبير . وفي هارفارد حاضر رسل دون أن يحدث ما يعكر الصفو . وبعد هارفارد انتقل رسل الى بنسلفانيا ليحاضر فيها سنتين متصلتين . وفي عام ١٩٤٤ عاد امام الفلاسفة المحدثين الى انجلترا حيث انعم عليه الملك جورج بوسام الاستحقاق .

وفي عام ١٩٥٠ عاد رسل الى أمريكا للتدريس في جامعة كولومبيا واستقبله الجميع بعاصفة من الهتاف والتصفيق لن ينساها الحاضرون مدى الحياة . وقورن استقبال كولومبيا للفيلسوف باستقبال باريس لفولتير عند عودته اليها في عام ١٧٨٤ بعد غربته التي كابدها في منفاه .

وفي عام ١٩٥٠ أيضا منح اللورد رسل جائزة نوبل للاداب . ويبدو أن اللجنة السويدية التي منحته هذه الجائزة العالمية لا تحفل بالقيم الروحية والأخلاقية كما يحفل بها الذين حاكموا رسل في أمريكا.

الفصل الثالث

قصة برتراند رسل مع الحرب والسلام الملحد الذى يسمع صوت الله

يقول برتراند رسل فى معرض الحديث عن موقفه من الحرب والسلام ان حياته تنقسم بشكل واضح الى فرنين مباينتين : فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، وفترة ما بعد هذه الحرب ، كما يقول ان حرب ١٩١٤ قد جعلته ينفض عن نفسه غبار الكثير من التحيزات والمعتقدات التى كان يدين بها ، وأن يبدأ التفكير من جديد فى عديد من المسائل الاساسية .

ومنذ عام ١٩٠٢ ورسل يلاحظ كل الشواهد الدالة على تجمع سحب الحرب وزيادة اخطارها . وكان هذا الاتجاه نحو الحرب يؤلمه ويبعث فيه اليأس والفنوط . فلا غرو اذا راياه يعارض تيار الحرب بكل جوارحه . وقف رسل فى وجه الحرب العالمية الاولى لانه كان يعتبرها بمثابة نهاية عهد ، وبداية عهد يؤذن حتما بانخفاض المستوى الحضارى العام . ولم يكن رسل يعتبر أن ايجاد وسيلة لتعايش انجلترا مع ألمانيا القيصريّة أمر مستحيل . ولهذا دافع رسل عن فكرة حياد انجلترا . ونحن نرى أن برتراند رسل حتى يومنا هذا لا يتزحزح قيد أنملة عن الاعتقاد بسلامة نظريته فى الحرب الاولى ، فهو يذكر فى هذا الصدد أن أحداث التاريخ التى تلت الحرب الاولى قد جعلته يتأكد من صحة رأيه وسلامة موقفه .

كان رسل فصيل اندلاع لهب الحرب العالمية الاولى فى كامبريدج يناقش الموقف مع كل انسان يجده فى طريقه . كان ذلك فى اثناء الايام الاخيرة للافحة الحر من شهر يوليو على وجه التحديد . واستطاع رسل أن يجمع توقيعات عدد كبير من أساتذة الجامعة والزملاء فيها على بيان يدافع عن حياد انجلترا ، ونشر هذا البيان فى جريدة المانشستر جارديان . ولكن بمجرد ان اعلنت الحرب بالفعل واشتركت انجلترا فيها ، تخلى معظم الموقعين على البيان عن موقفهم المدافع عن السلام ، وشرعوا بؤيدون الحكومة الانجليزية فى كل تصرفاتها .

وفى امسية ٤ أغسطس من عام ١٩١٤ أخذ برتراند رسل يتجول فى لندن وخاصة على مقربة من ميدان الطرف الاغر ليراقب الجماهير الهائفة بالحرب المتحمسة لها . وكان هدفه من هذا التجوال هو الوقوف على حقيقة مشاعر الناس العاديين نحو الحرب وتبيان موقف السابلة منها . ويعترف رسل بأن خبراته فى هذا الصدد قد غيرت الكثير من معتقداته الحاطة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية . ففى خلال هذه الايام

ومن ننايا تجواله فى الطرقات اكتشف رسل لدهشتمه ابتهاج الناس العاديين بتوقع الحرب ، ومتعتهم فى نشوبها فهى نبدد الملل المحيم على حياتهم . كان رسل فيما مضى يؤمن فى سذاجه كما يؤمن سائر المدافعين عن السلام - بأن الحرب شئ كريه تفرضه الحكومات الباغية المستبدة الميكيافيلية على شعوبها غير الراضية عنوة وقسرا . ولكنه رأى بنفسه مقدار ابتهاج الرجال والنساء العاديين بمقدمها . (لاحظ أن برتراند رسل يدأب على ترديد هذه الفكرة فى كتاباته فهو يرى أن فى طبيعة الانسان نزعة الى العدوان تجد متنفسا لها فى الحروب ، كما أنه يرى فى هذه النزعة عقبة تعترض طريق انشاء عالم موحد يسوده السلام . ولكن رسل لا يبدى يأسه من التغلب على هذه النزعة المدمرة ويؤمن بإمكان التسامى بهذه الطبيعة العدوانية وذلك بتوفير فرص المغامرة البناء والمخاطرة السلمية (كالأستكشاف وارتياذ الفضاء مثلا) لمن يتوق إليها من الشباب) .

لم يكن من السهل على برتراند رسل أن يتخذ موقفه الداعى الى السلام والى انتهاء الحرب العالمية الاولى بأى نمن . فقد اعتبر الانجليز أن موقفه خسيس وينطوى على خذلان لهم كما يتضمن نصرة لمانيا القيصرية عدوتهم . . . ورماء بنو جلدته بالحياة واهموه بأنه عميل المانى . ويقول رسل أن موقفه الداعى الى السلام وضعه فى مركز حرج لا من ناحية العداء العام الذى واجهه ، أو انفضاض معظم الأصدقاء عنه فحسب ، بل من ناحية شعوره الوطنى الخاص . فحب انجلترا على حد قوله يكاد يكون أقوى عاطفة فيه ، ولم يكن من اليسير عليه أن يتخلى عن هذه العاطفة . لقد كان من عادة برتراند رسل أن يساوره الشك فيما يصل اليه من آراء ولا يقطع بتصديق أى منها فيشله هذا الشك عن التصرف حيناً . وهو حيناً آخر ينظر الى المواقف الحرجة المستعصية نظرة استخفاف وعدم مبالاة . . . ولكن عندما نشبت الحرب العالمية الاولى ، لم يداخله شك قط فى الموقف الذى يتعين عليه اتخاذه . فقد شعر أن عليه أن يقف فى وجه هذه الحرب مهما كلفه هذا من ثمن . لقد أصابته دعايات سائر الدول المشتركة فى الحرب بالغشيان لما تضمنته من أكاذيب قومية سافرة كانت تسمى اساءة بالغة الى حبه للحقيقة ، كما ساءه كائنسان يحب الحضارة أن يرى صرحها ينهار أمام جحافل البربرية والظلام أضف الى ذلك أن المجازر البشرية البشعة هالته وجعلت قلبه - وهو أب يحنو على أبنائه - ينفطر على ضياع الشباب وهلاك الأبرياء فى أتون الحرب المتقد . ويقول رسل فى هذا المجال ان شيئاً واحداً دفعه الى المقاومة والاستمرار فى الجهر برأيه رغم كل مظاهر العداء ، والى الاحتجاج على الحرب رغم ادراكه التام بعدم جدوى مثل هذا الاحتجاج : هذا الشئ كان سيطلق عليه « صوت الله » لو كان متديناً . وألح عليه هذا الصوت المنبعث من دخيلة خميره الحاحاً شديداً جعله يضحي بحبه لوطنه وأصدقائه كما جعله يتقبل اضطهاد الناس له فى جلد وصبر وتماسك منقطع النظير . . . وهذا الشعور الجارف الهائت من الأعماق ليس بالغريب على رواد الانسانية فقد خبره سقراط كما خبرته جان دارك من قبل . ونحن نعرف جميعاً ان سقراط وجان دارك كانا شديدى التدين . ولكن الغريب فى الأمر أن

يكابد مثل هذه التجربة القريبة من الصوفية ان لم تكن الصوفية بعينها
انسان ملحد كبرتراند رسل .

- الفيلسوف الكبير يتعرض لضرب يكاد يفضي الى الموت

كانت تجربة الحرب العالمية الأولى مريرة ، مروعة بالنسبة لبرتراند
رسل لدرجة أنه أصبح لفترة من حياته يكابد رؤية مزعجة يرى فيها
لندن كمدينة من الوهم لا تتصل بعالم الحقيقة في شيء . كان رسل يرى
في خياله المحموم جسور لندن وهي تتقوض وتنهار وتغوص في اليم ، ثم
يرى المدينة العظيمة وهي تتلاشى بأكملها من الوجود وتتبدد كأنها ضباب
الصباح . وأحس الفيلسوف أنه يزرع تحت كابوس مزعج ويعيش في
عالم مادته من الأوهام . ولكنه آلى على نفسه أن يضع حدا لهذه الرؤية
البيتعة التي تشله عن العمل واجتاحه شعور عارم بضرورة الاقدام على
شيء ايجابي .

ولم تدم سلبية برتراند رسل واستغراقه في كابوس الحرب المزعج
طويلا . فقد بدأ يخطب في اجتماعات يعقدها المؤمنون بقضية السلام
وكانت هذه الاجتماعات تمر غالبا دون أن يحدث ما يعكر صفوها ، ودون
أن يتعرض المجتمعون للاعتداء أو الأذى . وفي اجتماع عقده أنصار
السلام في كنيسة الأخوة في سوث جيت رود في حي من أفقر أحياء
لندن على الاطلاق اندلعت أول شرارة لاضطهاد دعاة السلام فقد وزعت
الصحف الوطنية منشورات في كل الحانات القريبة من مكان الاجتماع
تقول ان رسل وأعوانه على اتصال بالألمان الأعداء ، وانهم يرسلون اشارات
الى طائرات الاعداء حتى تتمكن من اسقاط قنابلها واصابة الهدف بدقة .
أثارت هذه الشائعات عواطف الناس على أنصار السلام فحاصر
بعض الفوغاء مكان الاجتماع في الكنيسة يقودهم حفنة من رجال الشرطة .
وكان كل المتظاهرين من السكارى أو انصاف السكارى . ولم يبد
غالبية أنصار السلام رغبة في المقاومة فقد كان بعضهم يؤمن ايمانا راسخا
بعدم المقاومة أو استخدام العنف مهما كانت الظروف . أما البعض الآخر
فقد أدرك العبث الذي تنطوي عليه أية محاولة للمقاومة نظرا لقلّة عدده .
ولم يحرك ضباط البوليس الواقفون ساكنا فقد شاءوا أن يتركوا
المجتمعين في الكنيسة لمصائرهم المحتومة . وعبثا حاول ضباط البوليس
اغراء السيدات بالابتعاد عن مكان الاحداث حتى لا يصيبهن سوء ، وحتى
يخلو الجو أمام المتظاهرين ليفعلوا ما شاءوا بالرجال الجبناء الذين تسول
لهم أنفسهم خذلان بلادهم في وقت الشدة ، فقد رفضت إحدى السيدات
مغادرة المكان قبل أن يغادره زملاؤها من الرجال . فضربت بذلك مثلا
رائعا للشجاعة اقتدت به بقية السيدات .

وعندما غلّت مراحل الغضب في عروق المتظاهرين من السكارى
تقدم بعضهم من دعاة السلام يحملون عوارض خشبية مليئة بالمسامير .
كل هذا ورجال الامن لا يحفلون بشيء مما يقع أمام سمعهم وبصرهم .
وكان من نصيب برتراند رسل أنه تعرض لهجوم اثنين من السكارى
عليه . واندفع المعتديان صوبه حاملين هذه العوارض الخشبية يريدان

الفتك به . ولم يعرف الفيلسوف كيف يدافع عن نفسه أمام هذا النوع من الهجوم ، ولما رأت إحدى السيدات الخطر الداهم الذى يتهدد حياته ، طلبت من ضباط البوليس أن يندخلوا لحماية برتراند رسل من السكارى وهز رجال البوليس أكتافهم كأن الأمر لا يعنيتهم فى قليل أو كثير ، وساء السيدة هذا الاستخفاف من جانب البوليس فصرخت فى انفعال : «ولكنه فيلسوف بارز » . ولما لم يبد رجال الامن أدنى التفات الى الفيلسوف البارز عادت السيدة من جديد الى الصراخ فى وجه رجال البوليس «ولكنه مشهور فى أنحاء العالم بأنه رجل علم » . ولم يحرك البوليس ساكنا فتفتق ذهنها عن حيلة ، وقالت للبوليس مستصرخة : «لكنه أخو ايرل» . وفى الحال اندفع رجال البوليس لانقاذ برتراندرسل من براثن المعتدين . ولكن هذه المعونة من جانب الشرطة كانت متأخرة . وفى هذه الاثناء كانت إحدى السيدات الداعيات للسلام قد اعترضت طريق الاثنين من السكارى اللذين هاجما رسل واستطاعت هذه السيدة أن تحول بينهما وبين الفيلسوف حتى توفر له فرصة للفرار . وتمكن رسل أخيرا من الهرب بجلده سالما . والذى لا شك فيه أنه مدين بحياته لهذه السيدة التى اعترضت سبيل السكارى . ولولا تدخل البوليس لحمايتها لفتك السكارى بها .

كان رسل يلقي خطبة فى كنيسة الاخوة التابعة لفسيس من دعاة السلام على جانب عظيم من الشجاعة . وعلى الرغم مما تعرض له الفيلسوف ورفاقه من عنف واعتداء وتهجم فقد طلب منه هذا الفس الشجاع أن يلقي خطابا عن السلام من منبر كنيسته . ولكن جمعا من الغوغاء اجتمعوا واضرموا النار فى منبر الكنيسة . وبطبيعة الحال لم يتمكن رسل من القاء خطابه . وهانان الحادثتان هما الوحيدتان اللتان تعرض رسل فيهما لاعمال العنف فى سبيل دعوته .

وبسبب دعوة رسل للسلام طردته جامعة كامبريدج من استاذيته للرياضة بكلية ترينيتى . ثم أودعته سلطات الامن الانجليزية السجن لمدة أربعة شهور ونصف من عام ١٩١٨ . وفى السجن طاب له المقام وخاصة لان اللورد آرثر بالفور تدخل لدى سلطات الامن حتى تعامله أحسن معاملة يمكن لمسجون أن يحظى بها ولا تحرمه من القراءة والكتابة طالما أنه لا يكتب داعيا للسلام ووقف الحرب . ويقول برتراند رسل أن عزله التامة فى السجن أتاحت له فرصة للقراءة الدائبة والعمل المستمر فاستطاع أن يفرغ فى سجنه من كتابة « مقدمة للفلسفة الرياضية » كما بدأ فى تأليف كتاب آخر له يحمل عنوان « تحليل العقل » . وفى السجن أبدى رسل شيئا من الاهتمام بزملائه المساجين . وظهر له من معاشرة المساجين انهم لا يقلون من الناحية الاخلاقية عن بقية الناس خارج جدران السجن ولكنه لاحظ أن قواهم العقلية بوجه عام أقل بقليل من مستوى الذكاء البشرى المعتاد . والدليل على ذلك على حد تعبير رسل المتهم الساهر ان أمرهم اقتضح وانتهى بالقبض عليهم .

وعند دخوله السجن بروى رسل نادرة حدثت له وإشاعت فى نفسه المرح لمدة أسبوع كامل . فقد استوقفه حارس السجن عند البوابة

الخارجيه وطلب منه إسـتـبـيـعـاء بعض البيانات . . وسأله الحارس عن دِيَانَتِه فأجـاب رسل بأنه متشكك . فطلب الحارس الجاهل منه أن يساعده . في هجاء هذه الكلمة الغريبة عليه وهو يقول متنهدا . « حسناً هناك أديان كثيرة ولكنى أعتقد انها جميعا تعبد نفس الاله » .

وفى سبتمبر عام ١٩١٨ حرج برتراندرسل من السجن وكان من الواضح ان الحرب على وشك أن تضع أوزارها . وفى يوم ١١ نوفمبر عقدت الهدنة بين الدول المتحاربة وعاد السلام الى العالم الممزق . وعندما علم الناس خبر انتهاء الحرب عمت بينهم فرحة كبرى ودخل السرور الى قلب الفيلسوف الكبير وشارك الانسانية ابتهاجها غير أن شعوره القديم بالوحدة والعزلة سرعان ما عاد اليه .

من المنطق الرياضى الى السياسة

يؤكد برتراندرسل فى كتاباته أن الحرب العالمية الاولى قد أثرت فى مفدرات حياته فجعلته يوجه اهتمامه الى السياسة بعد أن كان اهتمامه فاصرا على دراسة المنطق الرياضى . صحيح أن الحرب الاولى لم تجعله يبجر المنطق والفلسفة المجردة هجرانا تاما ، الا انها جعلته يركز فكره على المشاكل الانسانية والاجتماعية ويسعى الى الوقوف على أسباب الحروب والى محاولة التوصل الى طرق لمنعها ويعترف رسل بالصعوبات الكأداء التى تكتنف مثل هذه الموضوعات الشائكة كما يعترف بأن النجاح الذى أصابه فى هذا المجال أقل بكثير من النجاح الذى سبق له أن أصابه عندما توفر على دراسة المنطق الرياضى . ويعزو الفيلسوف فشله فى هذا الشأن الى أن نجاح الدعوة الى السلام وماشاكلها من هذه الامور يعتمد على حث الناس والتأشير فيهم بينما ان طبيعة تأهيله وممراته السابقة لا تساعده فى هذا المضمار .

وفى الايام الاولى من حرب ١٩١٤ استرعت انتباه رسل الصلة الوثيقة الهامة التى تربط بين السياسة ونفسية الافراد . فعندما تتفق مجموعات الناس على مسلك معين ، يكون هذا المسلك نتيجة العواطف المشتركة التى تربط بين نفوسهم جميعا . وهذا بالذات ما دعاه الى الالتفات الى التحليل النفسى فيما بعد . كان رسل قبل الحرب العالمية الاولى يجهل التحليل النفسى جهلا تاما . ولكن ملاحظاته لمسلك الجماهير المسحون بالنزعة نحو الحرب فى الايام الاولى من أغسطس سنة ١٩١٤ دلته بما لا يدع مجالا للشك على أهمية التحليل النفسى فى فهم السلوك الانسانى . ومن خلال خبراته الخاصة بالحرب تبين له الا سبيل الى اقامة عالم يسوده السلام ويشيع فيه الامن والطمأنينة اذا لم يتم تغيير فى شعور الافراد . فشعور الكبار ان هو الا نتيجة عوامل مختلفة :

تجاربهم في أيام الطفولة ، ونظام التعليم والصراع الاقتصادي والنجاح والفشل الذي يصيبه الانسان في حياته وعلاقاته الخاصة والانسان الذي يشعر بأن حياته لم تضع عبثا أو تبوء بالفشل هو الذي يستطيع أن يحمل نحو بقية أفراد العائلة الانسانية شسـعور الشفقة والحنو والطمانية والرغبة في التعاون والمساعدة . ويقول رسل في هذا الصدد : « منذ تلك الأيام الأولى من شهر أغسطس ١٩١٤ حتى يومنا هذا اقتنعت اقتناعا راسخا بأن الاصلاحات الأساسية فيما يتعلق بالشئون الانسانية هي تلك التي تزيد من الشسـعور الطيب ، وتقلل من الضراوة نحو الآخرين » .

برتراند رسل يتحدث عن السلام

خطبة ألقيت في مجلس السلام العالمي في هيلسنكي

بواجه الانسانية خطرا لم يسبق لها ان واجهته على مدى التاريخ الانساني ، فاما ان ننبذ الحرب او يجب علينا ان نتوقع الفناء للجنس البشرى ، وقد بعالت صيحات كثيرة من رجال العلم البارزين والسلطات العلمية بالاستراتيجية العسكرية منذرة بالخطر الداهم . ولا يستطيع أحد منهم ان يحدد أسوأ النتائج على وجه التأكيد .

والذى أظن أنه يجوز اعتباره أمرا أكيدا ، هو انتفاء امكانية النصر لأى من الجانبين كما هو مفهوم من معنى النصر حتى يومنا هذا . وإذا استمر الاشتغال بالحرب العلمية دون ضابط فمن المؤكد أن الحرب القادمة لن تبقى أحدا على قيد الحياة ويستتبع هذا ان الامكانيات الوحيدة أمام الانسانية تنحصر اما فى السلام عن طريق الاتفاق أو السلام الذى يحلن فوق الموت الشامل .

وستساعدنا سلسلة الخطوات التى أقترحها ، كما اعتقد ، فى الوصول الى الحل الاسعد ولا شك ان هناك وسائل أخرى للوصول الى الهدف نفسه، ولكن من المهم ألا ينجح اليأس فى شل نشاطنا ، ويمنعنا من أن تمثّل فى أذهاننا ولو طريقة واحدة على الأقل محدودة المعالم للوصول الى سلام أكيد .

وقبل أن أعرض لهذه الخطوات ، أحب أن أعلق على وجهة نظر اعتقد أن الصواب يجانبها ، ويدعو اليها أصدقاء د للسلام مخلصون ممن يذهبون الى القول بأن مانحتاج اليه هو اتفاقية بين الدول الكبرى تتعهد فيها بعدم استخدام الاسلحة النووية على الإطلاق ، . ولكنى أعتقد أنه محاولة الوصول الى مثل هذه الاتفاقية ستفضى الى طريق مسدود لسببين

وأول هذين السببين أنه يمكن انتاج مثل هذه الاسلحة الآن بدرجة من السرية التى تتحدى التفتيش . وسيستتبع ذلك انه حتى لو أبرمت اتفاقية لحظر استعمال مثل هذه الاسلحة فسيظن كل جانب ان الجانب الآخر يقوم بانتاجها سرا . وسيجعل الشك المتبادل العلاقات آتشر توقرا عما هي عليه .

ونقطة الجدل الأخرى هي انه حتى لو امتنع كل من الجانبين عن انتاج مثل هذه الاسلحة فى فترة السلام الاسمية فلن يشعسر أى من الجانبين انه ملتزم بالاتفاقية فى حالة نشوب الحرب فعلا وسوف يمكن لكلا الجانبين انتاج قنابل هيدروجينية عديدة بعد البدء فى القتال .

هناك كثير من الناس الذين يخدمون أنفسهم معتقدين أن القتال

الهيدروجينية لن تستخدم بالفعل اذا سببت حرب . ويشير هؤلاء الناس الى أن الغازات السامة لم سنعمل في الحرب العالمية الثانية . وأخشى أن هذا لا يعدو أن يكون وهما كاملا . فالغازات السامة لم نستخدم ، لانه وجد انها غير حاسمة ، وأن افعلة الغازات نفى من الخطر . والقنبلة الهيدروجينية على العكس من ذلك سلاح حاسم لم تكتشف حتى الآن وسيلة للحماية من خطره . ولو استخدم أحد الجانبين هذه القنبلة دون أن يستخدمها الجانب الآخر فمن المحتمل أن الجانب الذى سيبدأ باستخدامها ، سيجعل الجانب الآخر فى مركز العاخر عن طريق استعمال قدر ضئيل من القنابل التى لن تسبب أى دمار يذكر للجانب الذى استعمالها اذا كان الحظ حليفه . فالدمار الأكثر فظاعة الذى يخشى منه يعتمد على انفجار عدد كبير من القنابل .

ولذلك فانا أظن أن الحرب التى يستخدم فيها جانب واحد فقط القنابل الهيدروجينية قد ننتهى الى شئ يستحق أن يسمى انتصارا لهذا الجانب . ولا أظن - وفى هذا تجدنى متفعا مع سائر السلطات العلمية بالسئون العسكرية - انه ليس هناك أدنى فرصة فى عدم استعمال القنابل الهيدروجينية فى حالة نشوب حرب عالمية . ويستتبع ذلك اننا يجب أن نقوم بمنع الحروب الشاملة والا كتب علينا الهلاك . وانها لخطوة ضرورية فى طريق السلام أن تحمل حكومات العالم على الاعتراف بهذا . وباختصار ، ان القضاء على القنابل الهيدروجينية وهو أمر يجب علينا جميعا أن نرغب فيه لا يمكن أن يصبح ذا فائدة الا بعد أن يجتمع الجانبان فى محاولة صادقة لوضع حد للعلاقات العدائية بين العسكريين . كيف يمكن تحقيق هذا ؟

لا بد من تحقيق هدفين قبل أن نصبح الموائيق والتدابير الدولية ممكنة .

أولا - على الدول الكبرى أن تدرك انها لا يمكن تحقيق أهدافها ، مهما كان نوعها عن طريق الحرب .

ثانيا - أن يعمل الشك المتبادل من الجانبين فى ان كلا منهما يستعد للحرب كنتيجة لهذا الادراك العالمى الشامل .

وفيما بلى بعض المقترحات الخاصة بالخطوات التى يمكن اتخاذها لتحقيق هذين الهدفين :

يجب أن تكون الخطوة الاولى فى شكل بيان يصدره نفر قليل من أبرز العلماء بشأن الاثر الذى يجب علينا توقعه من جراء حرب نووية .

من الجانبين ومن المهم أن تذكر لنا السلطات العلمية فى لغة واضحة كما يجب ألا ينضمم البيان تحيزا ، مهما يكن طفيفا ، لصالح أى الدور الذى ينبغي على الدولتين الحياتيتين الممثلتين أن تعلياه . فيقول ان ما ينبغي علينا توقعه بمستى الطرق ، ومدىنا بمعلومات كبدية من هذه الكلمات . أمكن ذلك كما تذكر لنا الفرض الأكثر احتمالا اذا كان الدليل القاطع لا يتوفر لدينا . ويمكن لى هم على استبعاد الاحتمال المشاكك الكبار فى

استيفاء المعلومات، وجمعها أن يتأكدوا في الوقت الحاضر من صحة معظم الحقائق في الجداول التي نسمح بها المعرفة الغائمة . ولكن الذي نحتاج اليه هو عرض المعلومات بأبسط أسلوب ممكن وأن تكون هذه المعلومات في متناول يد الناس والعمل على ذبوعها على أوسع نطاق ، كما يجب أن يتوفر لدى المشتغلين بنشر هذه المعلومات بيان مدعم بالحجج ، موثوق به للاستناد والرجوع اليه . . وأن يبين البيان في جلاء لا يرقى اليه الشك ان الحرب النووية لن تعود بالنصر على أي من الجانبين ، وأنها لن تخلق العالم الذي يريد الشيوعيون ، أو العالم الذي يريده المناهضون لهم ، أو العالم الذي ترغب فيه دول الجباد . .

ويجب دعوة العلماء في أنحاء العالم الى المساهمة في هذا البيان العنى ويحدوني الامل في أن يتشكل هذا التقرير كخطوة تالية ، أساسا بعمل بمقتضاء احدى الحكومات الحيادية أو أكثر ، ويمكن لهذه الحكومات أن تقوم بتقديم هذا التقرير ، أو تقرير يضعه علماءها المتخصصون اذا كانت تفضل ذلك الى كل حكومات العالم الكبرى وتدعوها للدلاء برأيها فيه ، ويجب أن يكون التقرير ذا وزن علمى يؤازره بالدرجة التى يكاد يتعذر معها على أية حكومة أن تدحض ما فيه من بيانات علمية . ويمكن للحكومات الواقعة على جانبي الستار الحديدي أن تعترف دون أن تنقد ماء وجهها للحكومات الحيادية بأن الحرب لم تعد تصلح كاستمرار لأساليب السياسة . والهند بالذات من بين دول الحياد فى وضع مفضل بطرا لانها على علاقات صديقة مع كل من الكتلتين ولما لها من خبرة ودراية فى التوسط الناجح بين كوريا والهند الصينية . وأنا أود أن أرى الحكومة الهندية تقوم بتقديم هذا التقرير العلمى الى الدول الكبرى وندعوها الى التعبير عن رأيها فيه . وأمل أن يحمل الجميع بهذه الطريقة على الاعتراف بانهم لن يفيدوا شيئا من حرب نووية .

ومن الضرورى فى الوقت نفسه اجراء تعديلات معينة فى أفكار هؤلاء الذين ما زالوا حتى الآن مندفعين فى مشايعة الشيوعية أو ماهضتها . ويجب عليهم أن يدركوا أن السباب المر الموجه الى الجانب الآخر أو تأكيد خطاياهم السابقة أو الشكوك فى بواعنه ونياته لن تخدم غرضا مفيدا . وليسوا بحاجة لان يتخلوا عن آرائهم فى تفضيل نظام على آخر . كما انهم ليسوا بحاجة الى التخلي عن المفاضلة فيما يختص بسياسة بلادهم الحزبية . والامر الذى يجب عليهم جميعا الاقرار به هو أن نشر الرأى الذى يفضلونه لا بد أن يتم عن طريق الحث والاقتناع . لا القوة والعنف .

دعنا نفترض الآن ان الدول الكبرى قد أمكن اغراؤها عن طريق هذه الوسائل المقترحة على الاعتراف بأنه لا يمكن لأية دولة منها أن تحقق أهدافها بالحرب وأن هذه لأصعب خطوة ، اذن فما الخطوات التى يمكن اتخاذها بعد ذلك ؟

الخطوة الأولى التى ينبغى اتخاذها على الفور تنحصر فى التهادن المؤقت للصراع سواء كان ساخنا أو باردا بينما تستنبط فى الوقت ذاته

تدبيرات أكثر دواماً . وحتى ذلك الحين لا بد أن تكون الهدنة المؤقتة مبنية على أساس الاحتفاظ بالوضع القائمة لعدم توفر أساس آخر لا يحوى مبادئه مفاوضات عسيرة ، وينبغي لمثل هذه المفاوضات أن تجيء فى حينها . ولتكون هذه المفاوضات مثمرة فلا بد من عدم إجرائها فى جو العداوة والشحناء والشك القائم فى الوقت الحاضر ، وعندما تخف حدة الكراهية والخوف فى خلال هذه الفترة ، ينبغي تخفيف وطأة الشتائم الصحفية ، وحتى الانتقادات التى يكيلها كل من الطرفين للآخر بوجه حق لا بد من إسكاتها . وينبغي تشجيع التجارة المتبادلة وتزاور الوفود المتبادل وخاصة النوع الثقافى والتعليمى منها . لا بد أن يحدث هذا كله على سبيل تمهيد الجو المناسب لعقد مؤتمر ، وتمكين هذا المؤتمر من أن يقضى على الصراع من أجل القوة .

وعندما يتم خلق جو ودى بعض الشيء باتباع هذه الأساليب ، ينبغي أن ينعقد مؤتمر دولى ، الغرض منه هو خلق سبل دون سبيل الحرب لتصفية الخلافات بين الدول . وهذا عمل شاق لا لضخامته وتعقيده فحسب بل بسبب التعارض الحقيقى الكبير الذى قد ينشأ فى المصالح . ولا أمل فى نجاح هذا العمل إلا اذا كانت الآراء قد أعادت اعدادا كافيا . وعلى مندوبى هذا المؤتمر أن يجتمعوا بحيث يكون رائدهم الاقتناع الراسخ بأمرين لا بد أن يكونا ماثلين فى ذهن كل مندوب منهم

أولهما : الاقتناع بأن الحرب تعنى الدمار الشامل

وثانيهما : الاقتناع بأن تصفية النزاع عن طريق الاتفاق أميد للمتنازعين من استمرار النزاع حتى ان لم يكن هذا الحل مرضيا تماما لاي من الطرفين .

ولو تشرب المؤتمر هذه الروح لاستطاع أن يمضى قدما بحدوده شئ من الرجاء الناجح فى معالجة المشاكل الضخمة التى ستعرض له .

وأولى هذه المشاكل التى يجب معالجتها هى خفض التسليح القومى . وطالما ان هذا التسليح سيظل على ما هو عليه فى الوقت الحاضر فمن الواضح ان نبذ الحرب لا يتسم بالإخلاص .

وينبغي إعادة الحريات التى سبق وجودها قبل عام ١٩١٤ وخاصة حرية السفر وحرية تداول الكتب والمجلات والتخلص من العقوبات التى تعترض نشر الافكار عبر الحدود القومية . وإعادة هذه الحريات السابقة خطوة من الخطوات الضرورية نحو الإدراك بأن الانسانية تكون عائلة واحدة ، وان المنازعات بين الحكومات عندما تشتد حدتها كما تشتد الآن ليست سوى عقبات فى سبيل السلام .

ولو تحققت هذه الاعمال الشاقة فسيمضى المؤتمر قدما الى خلق سلطة عالمية سبق للعالم ان حاول تحقيقها مرتين ، أولا : عن طريق

عصبة الامم ، وثانيا عن طريق هيئة الامم وأنا لا اعتزم الدخول في تفاصيل هذه المشكلة الآن مكتفيا بالقول بانها ان لم تجد حلا فلن تكون للتدبيرات الاخرى أية قيمة دائمة .

ومنذ عام ١٩١٤ حتى الآن تعرض العالم بصفه مستمرة للهلج المتزايد ، وهلكت أعداد هائلة من الرجال والنساء والاطفال ، وجربت نسبة كبيرة جدا ممن كتب لهم البقاء على قيد الحياة الخوف من الموت . وعندما يفكر الغربيون في الروس والصينيين وعندما يفكر الروس والصينيون في الغربيين ، فهم يفكرون في بعضهم البعض أساسا على انهم مصدر للدمار والتخريب ، لا على انهم بشر عاديون لهم القسرة الانسانية العادية على الفرح والحزن . وبدا من الواضح أكثر فأكثر أن الاستخفاف هو المخرج الوحيد أمامهم من اليأس والقنوط ، كما بدا أنه لا يمكن ادراك المخرج الذي يمكن التوصل اليه عن طريق الامل المتزن والسياسية البناءة . ولكن اليأس الذي لا يابيه شيء ليس بالحالة الذهنية الوحيدة العاقلة في العالم الذي نجد فيه أنفسنا ، ويكاد البشر عن بكره أبيهم في أرجاء العالم أن يكونوا أسعد حالا وأكثر انتعاشا اذا توقف الشرق والغرب عن التشاجر والعراك . وليست هناك حاجة لان يطلب من أحد أن يتخلى عن أى شيء الا اذا كان هذا الشيء هو الحلم ببناء امبراطورية عالمية وهو حلم يفوق في استحالة الآن أكثر المدن الفاضلة تفاؤلا . لقد توفرت لدينا الآن الوسائل التي لم تتوفر لأحد من قبل للحصول على فيض من الضرورات ووسائل الراحة التي نحتاج اليها في خلق حياة طيبة كريمة ، واذا تحقق السلام استطاعت روسيا والصين أن تخصصا كل أوجه النشاط المنصرفة الآن الى التسليح لانتاج البضائع الاستهلاكية .

والمهارة العلمية الهائلة التي تتسبب في انتاج الاسلحة النووية تستطيع أن تحيل الصحارى الى واحات مثمرة وتتسبب في سقوط الامطار في صحراء افريقية وصحراء جوبى وبالتخلص من الخوف ستنتطلق طاقات جديدة وتحلق روح الانسان عالية وتصبح قادرة على الخلق والابداع والتجديد ، وستتبدد المخاوف القديمة السوداء التي تقبع في أعماق أذهان الناس .

لن يكون هناك منتصر في حرب نستخدم القنبلة الهيدروجينية ، ويمكننا أن نحيا معا أو نموت معا . واعتقد اعتقادا راسخا انه لو أن الذين يدركون منا هذا وهبوا أنفسهم بقوة كافية من أجل هذا العمل فسنتطيع أن نجعل العالم يدركه كذلك . فالشيوعيون والمناهضون للشيوعية على حد سواء يفضلون الحياة على الموت . ولز وكل الامر اليهم في وضوح وجلاء لاختاروا التدابير الضرورية للمحافظة على الحياة . وهذا أمل ينطوى على جهد ومشقة لأنه يتطلب من جانب الذين يرون المشكلة منا في مجملها المعقد المتعرج انفاق طاقة هائلة في البحث والاقتناع اللذين يشوبهما دائما الادراك المؤلم بأن الوقت قصير كما يشوبهما التعرض لاغراض الهستريا التي تجيء نتيجة لتأمل خطر الهاوية

• يمكنه . وعلى الرغم من ان الامل تكتنفه الصعاب الا انه ينبغي ان يكون
حيا مائلا . وينبغي ان نؤمن به ايماننا راسخا بزعم ما يمكن ان نتعرض
له من تثبيط للهم . وينبغي ان يلهم هذا الامل حياة عسدد من الناس
وربما لا يتجاوز قلة ضئيلة في بادى الامر سيكتب لها التزايد تدريجيا
حتى يجتمع شمل البشر وهم يطلقون صيحة الفرح العظيمة ليحتفلوا
بنهاية القتل المنظم ولارساء قواعد عهد اسعد من أى عصر كان من نصيب
الانسان حتى الآن .

التعقل والحرب النووية

مقدمة

في كتيب لبرنارد رسل صدر عام ١٩٥٩ تحت عنوان « الحرب النووية » يعلن الحكيم الكهل ما يلي :

١ - أسفه على سك الغرب في نيات الداعين لحملات السلام وانهامه لهم باليسارية وتنفيذ الرأي العام من الغائمين بالدعوة الى السلام .

٢ - ان مصير الانسانية معلق في الميزان من جراء الخطر النووي الداهم وأنه من الضروري ايجاد حل يضمن للبشرية بقاءها وفيها من الغناء ، فمصير الانسانية أجل شأننا من المنازعات الايدولوجية بين الغرب والشرق . ويؤكد رسل ان الموازنة أو التفضيل بين النظام البرلماني والديمقراطي والنظام الدكتاتوري والشيوعي في هذه الآونة العصيبة كأساس للحياة الاجتماعية على حساب البقاء الانساني ان هو الا عبث ظاهر واسهتار بالقيم الانسانية .

٣ - ان مشكلة السلام مشكلة العالم بأسره ولا بد من تضامير جهود جميع دول العالم لاقاربه بما في ذلك الدول المؤمنة بعدم الانحياز .

أخطار الحرب النووية

يعرض الجزء الاول من هذا الكتيب لسرح محاطر الحرب النووية التي قد تعصف بالوجود الانساني كله ويعتمد رسل في تقديره لخطورة الموقف الدولي على تقرير وضعته لجنة خاصة من الخبراء الامريكان تعجلت تحت رعاية « الجمعية الامريكية للتخطيط القومي » ويحمل هذا التقرير العنوان التالي « ١٩٧٠ من غير رقابة على الاسلحة : مضمون تكنولوجيا الاسلحة الحديثة » . وواضعو التقرير كما أشربا من الخبراء الامريكان وهم بالاضافة الى ذلك قوم لا علاقة لهم مطلقا بالحملات الموجهة ضد الحرب النووية وبمعنى آخر هم طائفة من الخبراء التي لا يعنيههم التهويل في أخطار الحرب النووية في سبيل الدعاية لفضية السلام ، فهدفها الاول والاخير هو استجلاء الحقائق الخاصة بالدمار النووي في جسدود الموضوعية التي يمكن لانسان أن يتصف بها .

يبني هذا التقرير فروضه ونتائجه على أساس أن حربا شاملة لن تنشب حتى عام ١٩٧٠ ورغم هذا فالتقرير لا يستبعد احتمال نشوب حرب شاملة . كما يجزم بأن الحرب الشاملة ناشبة لامحالة اذا استمرت الأوضاع في العالم على ما هي عليه دون التوصل الى حل آخر . ويخلص رسل من هذا الى أن هيستيريا الخوف والفرع ستصيب الشعوب وان نفقات التسليح ستزداد يوماً بعد يوم تبعاً لذلك . وسيضطّر الناس أمام هيستيريا الهلع لقبول الفاقة الاقتصادية . وسينخفض مستوى المعيشة

الراهن في أمريكا الى مستوى المعيشة في كل من آسيا وإفريقية بدلاً من أن يرتفع مستوى هاتين القارتين حتى يصل الى ما أصابته أمريكا من رفاهية ورخاء لو أنصت العالم لصوت الحكمة والعقل واستخدم المعرفة التكنولوجية الحديثة من أجل السلام لا من أجل الاستعداد للحرب . كما ستؤدي هيستيريا الهلع بطبيعة الحال الى تقلص الحريات وانكماشها

لنلق نظرة مع الفيلسوف الكهل الى ميزانية التسلح كما وردت في تقرير الخبراء الامريكان . ان أمريكا تنفق ٤٥ بليون دولار على التسلح سنوياً . ويقول التقرير في هذا الصدد (تخصص الولايات المتحدة ١٠٪ من مجموع الانتاج القومي في الوقت الحاضر للاغراض العسكرية ، وتقدر ميزانية التسلح في الاتحاد السوفيينى بـ ١٥٪ من جملة الانتاج القومي فيها) . ويقول رسل ان العالم سيكون قد أنفق حتى عام ١٩٧٠ ما بين ١٥٠٠ بليون و ٢٠٠٠ بليون دولار اذا استمر جنون التسلح على هذا المنوال .

ويفصح رسل حلم العسكريين في الغرب وانشق ، هذا الحلم المجنون الذي يهدف الى استخدام الاقمار الصناعية للاغراض العسكرية وذلك بتزويدها بأجهزة حاسبة الكترونية تجعل من الممكن توقيتها بحيث تمطر الموت وبالا على أرض الاعداء وتتوقف عند عبورها فوق أرض الاصدواء .

ويستطرد رسل فيبين كيف ان العسكريين في العرب والشرق على حد سواء يعملون على نقل الحرب من كوكب الارض الذي نعيش عليه الى الفضاء ويستشهد على ذلك بشهادة الجنرال الامريكي بوت Putt التي ادى بها أمام لجنة خاصة بالقوات المسلحة . فقد شرح الجنرال بوت أمام هذه اللجنة ان سلاح الطيران الامريكي يهدف الى اقامة قاعدة عسكرية في القمر كما أوضح في شهادته المزايا العسكرية الناجمة عن اقامة هذه المنشآت القمرية اذ ان اطلاق قذائف الموت من القمر الى الارض لا يحتاج الى طاقة كبيرة بسبب عدم وجود غلاف جوى حول القمر من ناحية وضعف جاذبيته من ناحية أخرى . وقد صرح الجنرال بوت بالحرف الواحد بأنه « من الممكن أن يزودنا القمر بقاعدة لرد الاعتداء ذات ميزة قصوى على دول الأرض » . وفي تقديره ان الولايات المتحدة حتى بعد ان تندثر من على سطح الأرض نتيجة لهجوم روسى خاطف عليها تستطيع ان تدمر روسيا وتنتقم لنفسها عن طريق منشآت في القمر . وقد أيد وجهة نظر بوت العسكرية هذه ريتشارد . ا . هورنز السكرتير المساعد لسلاح الطيران للبحث والتطوير ورأى فيها خروجاً من المأزق الذي فرضه التسلح النووي على كوكب الارض . واضطر أحد هذين السيدين الكريمين وهو الجنرال بوت أن يعترف في آخر الامر أنه يمكن للاتحاد السوفيتي التوصل الى انشاء مثل هذه المحطات على سطح القمر كذلك غير أنه نصح الولايات المتحدة أن تسعى جاهدة الى السبق في ميدان غزو الفضاء والمبادرة باحتلال كواكب أخرى مثل المريخ والزهرة نظراً لفوائدها العسكرية الجمة .

والغريب في الامر كما يذكر رسل ان مثل هذه الاخبار ظلت في

طى الكتبان بالنسبة للرأى العام وامتنعت الجهات الرسمية عن اداعتها .
ويقول رسل انه لو لم تنشر المجلة الاسبوعية أى . ف . ستون الصادرة
فى ٢٠ أكتوبر عام ١٩٥٨ هذه المعلومات لما أمكنه أن يحيط بها علما .
ويفترض رسل أن الاتحاد السوفيتى يفكر فى مثل هذه المشروعات
المجنونة وإن كان يجهل كنهها . ويبدى الفيلسوف الكبير اشتمتازاه
وفزعه من مشروعات العسكريين هذه التى تدنس طهارة السماء وتلطيخ
الاجرام العلوية باحفاد البشر وضفائهم الصغيرة ومنازعاتهم الوضيعة
التافهة . ويأسى رسل لحال الإنسان الذى يملك من جوانب القوة الشيء
الكثير ولكنه لا يتصف بالحكمة فى قليل أو كثير . ولكن الأمل يحدوه
أن يغلب صوت العقل والتسامح فى هذا العالم المحموم على قوى الشر
والظلام .

وفى هذا السفر الصغير يحمل فيلسوف الغفل والتسامح حملة
شعواء على المنادين بسياسة حافة الهاوية سواء كان المنادى بها دالاس
فى الغرب أو غيره فى الشرق ولا يكتفى رسل بالتنديد بهذه السياسة
الخرفاء بل يفضح روح الاستهتار التى تتضمنها هذه السياسة فيذكر
لنا ما ترامى الى سمعه من أن أصل سياسة حافة الهاوية مستمد من لعبة
يمارسها بعض الشبان المستهترين والمذخرين فى أمريكا . وتجري اللعبة
على النحو النالى : يختار متنافسان من قائدى السيارات شارعا كبيرا
يفصله فى الوسط خط أبيض يمتد بطول الطريق . وتبدأ اللعبة بأن
يتحرك أحد المتنافسين بسيارته فى سرعة جنونية بحيث يكون جانب
السيارة التى يتولى قيادتها على طول الخط الأبيض وفى نفس الوقت
يتحرك نحوه المنافس الثانى من الاتجاه العكسى على الجانب الآخر من
الطريق بنفس السرعة الجنونية وبحيث لا ينحرف هو أيضا بجانب
سيارته عن الخط الأبيض الذى يتوسط الطريق . فإذا حدث أن انحرف
أحد المتنافسين بسيارته تقاديا للتصادم المروع والهلاك المحقق غيره زميله
بأنه (كتكوت) وكان انحرافه بالسيارة دلالة على جبنه وهوان شأنه .
ويتساءل رسل بأسلوبه الساخر الذى عودنا عليه كيف يمكن للعالم
المتمدن أن ينظر الى من يمارسون هذه اللعبة التى تؤدى بشابين نظرتهم الى
مستهترين لا خلاق لهما بينما يمجّد السياسة الذين ينقلون لعبة الموت هذه
الى المجال الدولى فيعرضون بذلك مئات الملايين من البشر للفناء ويخلع
عليهم رداء الحكمة والحصافة !

ماذا سيحدث اذا نشبت حرب نووية ؟ يجيب رسل عن هذا
السؤال بأسلوبه الساخر فيقول أن تقديرات الخبراء متباينة فى هذا
الصدد فمنهم من يعتقد أن الحرب النووية لن تهلك الكثير إذ أنها ستغنى
نصف البشرية لا غير ومنهم من هم أكثر تفاؤلا فيذهبون الى الاعتقاد
بفناء ربع البشر ولكن المتشائمين من الخبراء يرون أن الحرب النووية
ستعصف بالوجود الانسانى من جذوره . ويعلق رسل على هذه
التقديرات ساخرا فيقول اننا سنتبين مقدار الصدق فى كل منها بعد
نشوب الحرب النووية لا قبلها .

ويهزأ رسل من الفكرة الداعية الى استخدام « القنبلة النظيفة » فى

الحرب المعادمة على اعتبار ان عبارها الدرى أفضل خطرا على الكيان
الانسانى ويتساءل كيف يمكن لنا أن نضمن ان « القنبلة النظيفة »
ستستخدم بدلا من القنبلة الاخرى غير النظيفة فى حالة نشوب حرب .

لا بد أن يفهم رجال السياسة فى العالم ان الشعوب ترغب فى
البقاء وانها لا تكثر كثيرا بالمنازعات الايدلوجية وان الجانب السياسى
فى حياة الانسان طفيف كما ينبغى على السياسة فى العالم ان يدركوا
الوشائج التى لا تنقسم والتى تربط الكيان الانسانى غربا وشرقا
فالانسانية جمعاء تجمعها وحدة الامال والأفراح والاحزان . حتى الانسان
الذى يعيش فى البلاد النى يتلقى أهلها تعليما سياسيا ينصرف الى
مشاكل الحياة اليومية بعيدا عن السياسة ومنازعاتها فهو يأكل وينام
ويحب ويقيم عواطف انسانية تربطه بأهله وعشيرته كما أنه يجب أن
يفهم رجال السياسة مدلول هذه الحقيقة حتى لا يقيموا الدنيا ويقعدوها
بعجيجهم الزائف عن مدى الخلاف بين النظام الديمقراطى والنظام
السيوى . ان الذين يرضون لانفسهم وللجنس البشرى الهلاك سواء
فى الغرب أو فى الشرق لانهم يفضلون الموت على الخضوع لنظام اجتماعى
واقتصادى سياسى يكرهونه هم فئة قليلة مريضة بالمشاحنات السياسية

ويعجب رسل من زيف أو غفلة بعض الغربيين الذين يبدو
استعدادهم للورط فى حرب بويه دفاعا عن الحرية الديمقراطية
ويتحداهم أن يستفتوا شعوب الارض فاطبة فى هذا الشأن وان يطرحوا
السؤال التالى على كل فرد من أفراد الارض حتى يتبينوا بانفسهم اذا
كانوا يمثلون ارادة الشعوب ورغباتها أولا . . . أتفضل أن تعيش تحت
نظام سياسى واقتصادى يخلف عن النظام الذى نعيش فيه أو تفضل
التضاء على الانسانية بأسرها؟ ولو أننا طرحنا هذا السؤال على أى انسان
لا تهمنا بالجنون ورمانا باللؤنة وهو محن فى ذلك فبناء الانسانية
وسلامتها من الغناء فوق كل اعتبار .

الخروج من المأزق النووى

ما الحل اذن ؟ لا بد من يقارب فى وجهات النظر الدولية لا بد ان
نعيد الى اذهاننا الدروس التى تعلمناها فى القرنين السابع والثامن عشر
وهى الانصت الى صوت العقل والتسامح . لقد نسينا الدرس الذى
تلقيناه على يد « لوك » فليسوف العقل والتسامح فى القرن الثامن عشر .
لقد كنا عقلاء عندما تسامحنا فى الاديان وعندما آمنا بأن الحقائق الدينية
يمكنها أن تعيش جنبا الى جنب فى وئام وسلام . وان الحروب الدينية
أثر من آثار الماضى البغيض . لقد تعلم المسيحيون والمسلمون أن يعيشوا
جنبا الى جنب كما أدرك الكاثوليك والبروتستانت حماقة اراقة الدماء
بسبب الخلاف العقائدى ولكننا لم ندرك حتى الآن أهمية العقل والتسامح
فى المجال السياسى .

على الدول الكبرى أن تسعى مخلصا الى اقرار السلام لا الى
المناورات السياسية التى تهدف الى تسجيل انتصارات دبلوماسية فى
حرب الدعاية . ورسلا لا يطالب أبدا دولة من الدول الكبرى بأن تتنازل

أو تتخلى. عما نراه مصلحة حيوية لها كما أنه لا يطالبها بالانسسلام من أجل صيانة السلام .- يؤكد رسل أن هذا غير معقول وغير منطقي بأنه جال من الاحوال . ولذلك يقترح ضرورة بجميد الاوضاع الراهنة في العالم والاحتفاظ بميزان القوى الدولي في الوقت الحاضر ويهدف رسل بتجميد الاوضاع الى تخفيف حدة التوتر العالمي بقاديا للمزيد من العادل والمنافعات التي تيرها صحف الحرب الباردة . وليس معنى هذا أن يطل ميزان القوى على ما هو عليه . ولكن هذه التغييرات لا بد أن تتم بالطرق السلمية دون الالتجاء الى الحروب ودون التهديد بها . والاحتفاظ بميزان القوى كما هو عليه في الوقت الحاضر ليس الا خطوة تمهيدية من شأنها أن تخلق الجو المناسب لزيادة التفاهم الدولي وتوطئة للوصول الى حل شامل لكل المشاكل الدولية .

ويقترح رسل أن يبدأ طرفا النزاع باصدار بيان يعهدان فيه بنبيذ سياسة العنف وبعدم الالتجاء الى الحرب كأساس لحل المشاكل الدولية كما يعهدان بصيانة ميزان القوى الدولي كما هو عليه وبعدم السعي الى تغييره عن طريق الاتارة والتحريض . كما يقترح رسل ضرورة ابعاف التجارب النووية وقبول الطرفين لمبدأ الخضوع للرقابة والنفطيش على الأسلحة بعد أن يتخلص الجانبان من تلك الرية المتبادلة التي نفج حجر عثرة في سبيل الوصول الى تسوية سلمية للمشاكل الدولية .

وينصح رسل باقامة هيئة مستركة دائمة للوساطة والمفاوضات بين الغرب والشرق ، لا نهذف الى ايجاد الحلول بل الى الاستطلاع والاستكشاف تمهيدا لايجاد الحلول وبمعنى آخر أن الهدف من تكوين هذه الهيئة هو خلق جو من الثقة المتبادلة . ويقترح رسل أن تكون هذه الهيئة محدودة الاعضاء بحيث لا يزيد عن ستة أعضاء : عضوين من الولايات المتحدة وعضوين من الاتحاد السوفيتي وعضو يمثل الغرب وعضو آخر يمثل الصين الشعبية وبالإضافة الى هؤلاء يعين عضوان آخران من دول الحياد ولضمان العدالة في ميزان قوى هذه الهيئة يختار أحد العضوين الحيايين من بلد تميل الى الاتحاد السوفيتي والعضو الآخر من بلد حيادية تميل الى الولايات المتحدة .

وهذه رسل من تقليل أعضاء هيئة الوساطة والتفاوض هو التأكد من عدم تحولها في نهاية الامر الى منبر من منابر الدعاية وحلبة يستعرض فيها المتصارعون عضلاتهم الخطابية . ويشترط رسل أن يتمتع الاعضاء المعينون بثقة الحكومات التي يمثلون مصالحها . وتوفر هذه الثقة في الاعضاء نعتبر جوهرية حتى لا تشك الحكومات المعنية في طبيعة المقترحات أو التوضيات التي قد تتوصل اليها هذه الهيئة . ويشترط رسل الدور الذي ينبغي على الدولتين الحياتيتين الممثلتين أن نلعبه فيقول أن وظيفة ممثلها هي السعي الى تقريب وجهات النظر بين الغرب والشرق اذا بدا أن هوة الخلاف بينهما تتسع كما أن عليهما التأكد من أن المقترحات المطروحة للبحث لا تنطوي على إفتئات جانب على مصالح الجانب الآخر . ويختار على الدول الاعضاء أعضاء ممثلين في الهيئة من كافة المستويات لياتر التفاوض على القضايا التي تهمهم المتفرغ الاهتمام بالاستطلاع

والتفاوض ودراسة المشكلات المتعلقة بدراسة مستفيضة . وينبغي على الهيئة أن تعمل في صمت بعيدا عن أعضاء الصحافة وأجهزة الدعاية والاعلان حتى يكون الهدف من اجتماعهم هو الوصول الى الحقيقة لا الى تسجيل انتصارات دبلوماسية . وعلى الاعضاء الستة أن يجتمعوا بصفة متكررة بالطرق الرسمية وغير الرسمية ولا يحق لاي من الاعضاء اذاعة شيء عن نتيجة هذه المشاورات الا بعد أن تكون جميع الاطراف قد اتفقت عليه . وعلى اللجنة أن تسمح مشاكل العالم كلها ومصالحه المتعارضة في موضوعية وأن تحاول الوصول الى تسويات ليس من شأنها في مجموعها أن تضر بمصلحة أحد . وإذا خسرت دولة مصلحة أو فائدة معينة في جزء ما من العالم فعلى الهيئة أن تجد سبيلا لتعويض هذه الدولة عن خسارتها في جزء آخر منه . كما أنه على الهيئة النظر الى مشاكل العالم كوحدة لا تتجزأ لا كمشاكل متفرقة وأجزاء منفصلة . ولا بد للهيئة أن تحترم ارادة شعوب الارض كلها لما أمكن ذلك . فكل شعب مطلق الحرية في اتباع نظام الحكم دون الآخر . ولكن رسل يستثنى من ذلك بعض الحالات النادرة والشاذة وهي التي يقتضي تحقيق ارادة شعب ما الى تشكيل خطر داعم وتهديد سافر لمصالح أحد اطراف النزاع فليس من المعقول بأية حال أن نسمح الولايات المتحدة لشعب بناما (على سبيل المثال) أن يقيم حكومة شيوعية على أراضيها لان في هذا تهديدا مباشرا لمصلحة هذه الدولة الكبرى وهي لن تسكت عليه بطبيعة الحال . ويعود رسل فيؤكد أنه لا يطالب أيا من العسكريين المتنازعين بالتضحية بمزايا برى أنها حيوية بل هو يطالب فقط بتنسيق هذه المصالح بحيث لا يلحق ضررا بأي جانب في المجموع .

هناك مشكلتان لا بد للهيئة أن توليها عنايتها . (أولا) لا بد من نزع السلاح ولا بد من العمل على عدم توسيع رفعة النشاط الذري ومن الخطر على السلام أن تنسج دائرة الدول المنسجة للأسلحة النووية ولا بد من الاقتصار في انتاج الأسلحة الذرية على أمريكا وروسيا الى حين الوصول الى تسوية عامة دولية . (ثانيا) لا بد من اجراء بعض التعديلات في الحدود الإقليمية لبعض الدول . وقد تسخط هذه التعديلات في الحدود الإقليمية بعض الدول ولكن يجب ارجاع هذه الدول على قبولها اذا كانت في صالح السلام العالمي . وحل هاتين المشكلتين حلا ناجحا رهين باقامة حكومة عالمية .

مشكلات عالمية لا بد لها من حل

قبل أن نتعرض لمشروع رسل باقامة حكومة عالمية وموقف هذه الحكومة من الحكومات المحلية لا بد لنا من أن نستعرض رايه في بعض المشاكل الدولية التي يرى في حلها دعامة للسلام العالمي . يقسم رسل المشاكل الدولية الحساسة في العالم الحديث الى ثلاث مناطق :

١ - منطقة أوروبا : وأهم مشاكلها توحيد ألمانيا . وفي نظر رسل أن السلام لا يمكن أن يدوم الا اذا اتحدت ألمانيا ولكن شعوب روسيا تشعر بالقلق الشديد نحو إعادة تسليح ألمانيا فمخبرات روسيا مع ألمانيا

في الحريين العالميتين برر هذا القلق فهو قلق طبيعي مفهوم ولا بد لروسيا ان تامن جانب المانيا . ولذلك يعترح رسل الحد من تسليح المانيا بحيث لا تصبح خطرا يهدد الاتحاد السوفييتي كما كانت في الماضي .

ويذهب رسل الى ابعد من ذلك فيفترح نزع السلاح من وسط أوروبا وتصفية القواعد العسكرية في غرب أوروبا وشرقها . حقيقة ان أمريكا لا تستطيع ان تصل الى عريمتها روسيا الا عن طريق انشاء قواعد ذرية في غرب أوروبا وانها بصفتها لهذه القواعد بضحي بجانب ممتاز من مركزها الاستراتيجي . ولكن الولايات المتحدة ستحصل على مايعادل هذه الخسارة من القوائد فعندما ترتفع القبضة الروسية على شرق أوروبا ستتخلي بعض الدول الشرقية عن الحكم الشيوعي مثل ألمانيا الشرقية والمجر وربما بولندا وتفضل عليه نظاما اشتراكيا برلمانيا .

٢ - الشرق الاوسط : ينحى رسل باللائمة على الغرب لانه يناصب القومية العربية العداء لان هذا قد أعطي للانحداد السوفيتي فرصة لكي يظهر بمظهر الصديق للدول العربية ويقترح رسل ان تحمي الدول الكبرى أية دولة في المنطقة ضد توسع دولة أخرى .

٣ - منطقة شرق آسيا : لا يرى رسل حكمة في استبعاد الصين الشيوعية من الامم المتحدة وعلى الرغم من انه يتهم الصين الشيوعية بالنيات التوسعية الا انه غير راض عن نجاهل الغرب لحقيقة الامر الواقع واصرارته على التعامل مع تشاي كاي شك باعتبار انه الممثل الشرعي للصين ويتناول رسل مشكلة فرموزا فيقول ان فرموزا لابد ان تعود في نهاية الامر الى الصين ، الأرض الأم ولكنه ينصح بان تعطي فرموزا لتشاي كاي شك مدى الحياة لتصبح بعد وفاته جزءا لا يتجزأ من الأراضي الصينية .

الحكومة العالمية

عندما يتوافر الجو المناسب يقترح رسل انشاء حكومة عالمية . وفد نخطئ فنظن ان الدعوة لحكومة عالمية دعوة يسارية أو قربية من اليسارية وليس هذا بالصحيح فقد دافس فريق من حزب المحافظين البريطاني عن قيام حكومة عالمية وراوا في انشاء هذه الحكومة الحل الحاسم لكل مشاكل الانسانية وأصدر عشرة من أعضاء البرلمان المحافظين كتيباً بعنوان (سلطة للامن العالمي) يشرحون فيه وجهة نظرهم الخاصة بانشاء حكومة عالمية وهم يعتمدون في دعوتهم على بيانات وتصريحات أدلى بها ماكميلان ودنكان ساندز وزير الدفاع البريطاني . ويدرك رسل الصعاب التي تعترض تنفيذ مثل هذا المشروع وهو يدرك أيضا انه مشروع اقرب الى الخيال منه الى الحقيقة في الوقت الحاضر . ولكنه يريد من الانسانية ان تسعى الى تحقيق هذا الهدف الكبير .

يقول رسل انه على الرغم من فشل عصبة الأمم في الماضي والأمم المتحدة في الوقت الحاضر في اقرار السلام الا انه من الممكن تطوير الامم المتحدة بحيث تصبح نواة لحكومة عالمية .

وفيما يلي مبررات رسل بصيود هذه الحكومه العالميه :

١ - لا بد من ان تكون لهذه الهيئه سلطة تنفيذيه تستطيع بها وضع قراراتها موضع التنفيذ ولا بد لهذه الهيئه العالميه من انشاء جيش عالمي قوي يضمن للقرارات الدوليه الاحترام والتنفيذ .

٢ - يقترح رسل تقسيم العالم الى مناطق فيدرائيه يراعى فيها التساوى في عدد السكان بقدر الامكان وتسمى هذه المناطق بالفيدراليات . وليست الحكومه العالميه الا اتحادا عاما لهذه الفيدراليات والغرض من مراعاة التساوى في عدد السكان في حدود الامكان هو ضمان تمثيل اراض العالم تمثيلا صحيحا فليس من المعقول ان يكون لمنطقه او دولة صغيره في تعداد سكانها مثلما يكون لدولة كبيره مكتظة بالسكان في قدرتها على التأثير في القرارات الدوليه . وتخضع هذه الفيدراليات لسلطة عليا هي سلطة الحكومه العالميه .

٣ - يجب الغاء حق الفيتو المعمول به في مجلس الامن الذي لا يضم سوى حفنة من الدول ، فمن شأن حق الفيتو ان يعطل تنفيذ سائر القرارات التي يكاد يجمع عليها المجلس حينما يحصلو لدولة ممثله في المجلس ان تفوض اركان هذه القرارات .

٤ - بما ان الغرض الاساسي من انشاء حكومه عالميه هو اقرار السلام فليس من حق هذه الحكومه العالميه ان تتدخل في المسائل الداخليه لايه دولة فيدراليه فلها ان تختار اي دين واي نظام اجتماعي وسباسي واقتصادي يحلو لها .

٥ - الغرض من انشاء قوة ضاربه تابعه للامم المتحده او الحكومه العالميه هو القضاء على كل محاوله من جانب ايه فيدراليه لتعكير صفو السلام العالمي . وتصبح الاسلحه الذريه حكرا للحكومه العالميه . ودور السلاح الذري في العالم الحديث هو نفس الدور الذي لعبه البارود في الماضي وهو منع ايه دولة قد يعن لها الاستقلال عن الحكومه المركزيه . ففي الماضي كان الامراء والافطاعيون يحتمون بقلاعهم متحدين سلطة الحكومه المركزيه ولكن البارود مكن الحكومه المركزيه من السيطرة والضرب على ايدي من تسول لهم انفسهم الاستقلال والانفصال .

٦ - لا بد ان يراعى في تكوين وحدات القسوات المسلحة التابعه للحكومه العالميه ان تشتمل كل وحده على كل الجنسيات في العالم .

ويهدف رسل من هبذا الاختلاط الى منسح الجنود التابعين لجنسيه واحده من التكتل في صعيد واحد فلو ان الهيئه العالميه اصدرت لواحده من وحدات جيشها امرا بالتحرك للعمل ضد دولة نحاول تمكير صفو السلام العالمي وكانت كل هذه الوحده او غالبيتها تنتمي الى هذه الدوله الخارجه عن القانون الدولي لعمدت الى اليكؤ في تنفيذ الاوامر او تعطيلها اذا كان ذلك في مقدورها .

وعنديها يقترح رسل على الحكومه العالميه ان تحتكر السلاح النووي وبنو لا يفكر في استخدامه ضد ايه دولة . وفيما يخصها ترفض الخضوع

لاحكام القانون الدولى فالدولة المتساعبة فى نظره هى فى وضع المجرمين
العاديين بالنسبة للدولة التى يعيشون فيها والدول لا ملجا الى استخدام
الجيش وعتادها الحربى لتعاقب المجرمين والخارجين على القانون والضرب
على ايديهم .

٧ - لعل أخطر اعتراض على انشاء حكومه عالمية هو ان القوة
الضاربة المسلحة السابعة لها قد يعن لها القيام بانقلاب للسيطرة على
مقاليد الحكم فى العالم وللضغط على السلطات المدنية ويعترف رسل انه
من الناحية النظرية يجوز حدوث هذا الامر ولكنه ينصح بانباع الطرق
المعروفة التى تمكن للسلطة المدنية حتى فى ألمانيا النازية وروسيا
الشيوعية والولايات المتحدة الاحتفاظ باستقلالها عن أجهزة الجيش
وسيطرتها .

لا بد من تغييرات هامة فى تفكير الانسان الحديث

لا بد للعالم أن يعيد النظر فى أسلوب تفكيره من جديد ولا بد له
أن يختط أسلوبا جديدا يتمشى ومقتضيات العصر الحديث . لا بد
للعالم أن ينصت الى صوت العقل والتسامح ولا بد له من نبذ التعصب
الذى يعنى الانسان عن فضائل غيره ويؤدى الى تمجيد الانسان لفضائله
التي يتوهم انه يتحلى بها دون خلق الله . والانسان المتعصب موقن انه
على صواب وان غيره على خطأ دون أن يخطر له اننا جميعا بشر غير
منزهين عن الخطأ .

وفى معرض حديثه عن القومية يرى رسل انها مشروعة اذا كانت
تناضل عن الحرية والاستقلال ضد دولة غاصبية ولكنه لا يقبل بحال أن
تتحول هذه القومية الى قوة معتدية تسعى الى التوسع والسيطرة . ويدفع
رسل عن نفسه تهمة الايمان بالمسألة التى تبلغ مبلغ الاستسلام فيقول
انه لم يكن فى أى يوم من الايام من المؤمنين بمبدأ مهاذنة الاعداء والخضوع
لهم كغيره من دعاة السلام ففى نظره أن الحرب مشروعة واجبة فى بعض
الحالات وهو لا يقبل أن يتكرر فى العصر الحديث ما حدث فى الماضى
عندما قوضت جحافل البربر أركان الحضارة فى الدولة الرومانية
ويطالب رسل باجراء تغيير شامل فى نظرة العالم التعليمية فهى فى
الوقت الحاضر نظرة ضيقة تقوم على التعصب والافق المحدود ومن رأيه
أن ينال علم التاريخ بالذات جانبا جوهريا من التغيير فقد درجت كتب
التاريخ فى جميع الدول على تمجيد تاريخها والنصب لاسلوب حياتها
والمبالغة فى شأن الدور الذى لعبته فى اقامة الكيان الحضارى . يجب
على كل انسان أن يدرك سخافة هذا التفكير وأن يدرك أن الحضارة
الانسانية والتقدم البشرى لم يقسوما على أكتاف دولة معينة دون دول
العالم فقد أسهمت كل الانسانية فى بناء صرح الحضارة ومن العبث أن
تفخر أية دولة بأنها أرست قواعد هذا الكيان الحضارى فهذه النظرة
تفرق ولا تجمع ، تنشر العداوة ولا تبذر الحب .

يقول رسل انه سبق له فى الماضى أن اقترح أن تقوم المدارس
والمعاهد التعليمية بتدريس كتب تاريخ قام بكتابتها اجانب وعندما

يقترح رسل تدريس الكتب التي قام بتأليفها أجاناب يدرك تماما ان هذه الكتب متحيزة كسائر الكتب الاخرى ودفاعه الجدلي عن هذا هو ان كتب التاريخ المقررة أصلا مليئة بالمغالطات والتحيز وان التحيز الموجود في كتب الاجانب للتاريخ سيعادل الاثر السيء الذي قد خلفته الكتب الاصلية .

ولا بد لروح المغامرة في الانسان أن تجد لها تنفيذا غير الحرب والعلم الحديث بإمكانياته الهائلة التي لا تحصى ، يمكنه أن يستنفذ في الانسان طاقة المغامرة والكشف والاستطلاع ولو أمكن العالم أن يستبدل الرغبة في المغامرة والكشف العلميين بالقتال والحرب لحظيت الانسانية بسعادة عظمى .

موقف راسل من الحرب العالمية الثالثة

من كتابه « هل للانسان مستقبل ؟ »

سأبدأ بأن اطلب من القارئ ان ينسى في هذه اللحظة الراهنة تفاصيل التاريخ الحديث ، والاحتمالات السياسية التي تتضمنها المستقبل القريب . وسأطلب منه أيضا أن ينسى ما يحب وما يكره ما يفضل وما يهتف ، كما ينسى معتقداته الاخلاقية فيما هو خير وما هو شر . فانا أحب أن أضح في الاعتبار هنا ، بطريقة علمية محضة واسلوب بعيد عن التحيز تماما ، الشروط التي لابد من توافرها لكي يقدر للانسان أن يستمر حيا لأجل طويل .

وفيما يتعلق بالشروط الطبيعية ، يبدو انه ليس هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن الحياة ، بما فيها الحياة الانسانية ، لن تستمر لعدة ملايين من الأعوام ، فالخطر لا يكمن في بيئة الانسان الطبيعية او البيولوجية بل في الانسان نفسه . لقد أمكن للانسان أن يبقى على قيد الحياة حتى الآن بسبب جهله (١) . أما وقد فقد هذا القدر المفيد من الجهل ، فهل يمكنه أن يستمر في البقاء على قيد الحياة ؟ .

هناك نوع من البقاء المؤقت بعض الشيء ، وهو أمر ليس بعيد الاحتمال كلية . فمن الجائز أن تترك حرب نووية في المستقبل القريب بعض الناس على قيد الحياة ، ولكنها لن تبقى على أى شيء من أجهزة الحضارة . وقد يظل الشغل الشاغل للباقيين على قيد الحياة منحصرًا لدى طويل في الحصول على الطعام ، كما يجوز أن ينتهي الأمر بالانظمة الاجتماعية الى الزوال التام من حياتهم ، وأن يصبحوا عاجزين تماما عن نقل المعرفة والأساليب العلمية الى الاجيال القادمة .

في مثل هذه الظروف ، قد يكرر الانسان تاريخ المائة الف عام الماضية ، فبعد أن يتوصل في نهاية المطاف الى ما وصلنا اليه من حكمة في الوقت الحاضر قد يعجل للمرة الثانية بالسقوط ، عن طريق تورطه في حماقة تضارع حماقتنا . هذه صورة ممكنة لوقوع لبقاء الانسان على قيد الحياة ، ولكنها ليست بالصورة التي نعت على الكثير من الارنياح .

وإذا افترضنا أن الانسان سيظل قادرا على الأساليب العلمية ،

(١) يداب برتراند رسل على ترديد هذه الفكرة في كتاباته ، وهو يرى أن استمرار الحياة على سطح الأرض رغم كل الحروب الماضية كان نتيجة لنعمة جهل الانسان وعدم كفاءته فيما يتعلق بوسائل الدمار . . أما الآن وقد تبدد جهله وامتلك الوسائل العلمية الفتاكة فيمكنه القضاء على الجنس البشرى بأكمله . « المترجم »

فما هي الطرق الممكنة التي قد يتوصل بها للهرب من الدمار الشامل ؟
ونحن الآن بصدد سؤال أكثر تحديدا من السؤال التالي : « هل يمكن
للإنسان أن يبقى على قيد الحياة ؟ » ، فنحن الآن نسأل : « هل يمكن
للإنسان العلمى أن يبقى على قيد الحياة ؟ » . اننى لا اثير مجرد السؤال
عما اذا كان سيستمر على قيد الحياة خلال عشرة الأعوام القادمة ،
ولا حتى المائة عام القادمة . فقد يتحایل الإنسان على البقاء حيا خلال
فترات من الخطر الجسيم ، ويحالفه في هذا الحظ السعيد . ولكن
لا يمكن أن نتوقع أن يستمر الحظ السعيد حليفا له الى الأبد . وسواء
طال الوقت أم قصر ، فإن المخاطر التي يسمح الإنسان لها بالاستمرار
ستقتص منه .

لهذه الأسباب ، أخشى أن يكون في حكم المؤكد ، أن الإنسان العلمى
لن يبقى على قيد الحياة طويلا اذا قدر للفوضى الدولية الحاضرة أن
نستمر . وطالما أن القوات المسلحة تأتمر بأمر أم بمفردها ، وبأمر
مجموعات من الأمم ليست على درجة كافية من القوة لكى تخضع العالم
بأسره لسيطرة لا يتنازعها فيها منازع — طالما أن هذا الوضع قائم فإنه
يكاد يكون من المؤكد أن الحرب ستنتشب أن أجلا أو عاجلا ، وطالما أن
الاسلوب العلمى ما زال مستمرا ، فستزداد الحرب قدرة على الفتك
والتدمير .

« آلة يوم الحشر »

هناك بالفعل امكانيات تقشعر من هولها أبدان حتى المدافعين عن
القنابل الهيدروجينية . ف « آلة يوم الحشر » التي تستطيع أن تفنينا
جميعا يمكن صنعها ، بل لقد تم صنعها بالفعل حسبما نعلم .

وارخص نوع للدمار اقترح حتى الآن هو قنبلة الكوبالت . وهى
تشبه تماما القنبلة الهيدروجينية الموجودة حاليا ، ولا تختلف عنها سوى
أن غلافها الخارجى يتكون من الكوبالت وليس من البورانيوم . وسينتج
عن تفجير هذه القنبلة ضرب مشع من الكوبالت، يندثر ببطء . ولو فجر
عدد كاف من قنابل الكوبالت لاندثر سكان العالم برمتهم في ظرف
سنوات قليلة .

ولا تعدو قنبلة الكوبالت أن تكون وسيلة واحدة لا غير من وسائل
الابادة والفناء . فمهارات الإنسان في الوقت الحاضر تستطيع أن
تستحدث الكثير جدا من هذه الوسائل ، ومن غير المستبعد الا تتورع
الحكومات الحاضرة عن استعمال بعضها .

ولمثل هذه الأسباب ، يبدو من المؤكد أن الإنسان العلمى لن يستطيع
أن يظل على قيد الحياة لمدى طويل ، ما لم توضع كل الاسلحة الأساسية
للحرب وكل وسائل التدمير الشامل في أيدي سلطة واحدة ، تصبح
نتيجة لاحتكار السلاح ذات قوة ضاربة لا سبيل الى مقاومتها ، وإذا

حدث ان تعرضت للتحدى المفضى الى الحرب استطاعت ان تسحق
اى تمرد على سلطاتها خلال ايام محدودة دون ان يصاب أحد غير
التمردين انفسهم بأذى كبير . ويبدو من الواضح ان هذا شرط لا غنى
عنه مطلقا لاستمرار الحياة فى عالم يملك فى حوزته المهارة العلمية .

هناك طرق مختلفة قد يتحقق بها مثل هذا العالم . فلو ان أحد
الجانبين كان يملك القنبلة الهيدروجينية ، وذلك قبل ان يتوصل
الجانب الآخر الى اكتشافها لكان من الجائز ان يتحقق هذا العالم بفعل
حرب نووية يخرج منها هذا الجانب مظفرا ، ويكون قادرا على املاء
ارادته دون ان تواجهه مقاومة مجدية . هذا الاحتمال لم يعد له وجود ،
ولا يستطيع أحد ان يقدر على وجه التأكيد مدى الدمار الذى تسببه
حرب نووية تستعمل فيها الأسلحة الراهنة . ويجب علينا جميعا ان
نأمل فى استمرار هذه الحالة التى ينعدم فيها التأكيد .

من الممكن بعد حرب نووية بين دول حلف شمال الاطلسى وبين
دول حلف وارسو ، ان تحتفظ بعض الدول المحايدة بدرجة من
التماسك الاجتماعى تساعد على ان تحفظ الحضارة من الاندثار فاذا
جعلت الصين الحكمة رائدها وبقيت على الحياد فى مثل هذه الحرب ،
واذا هبت الريح من الشرق طيلة الايام القليلة التى تستمر فيها الحرب ،
فقد تصبح الصين فى وضع يسمح لها بالسيطرة على العالم . اما اذا
كانت الصين احدى الدول المتقاتلة ، او اذا هبت الريح من الغرب فان
سيادة العالم قد تكون من نصيب حلف يضم جنوب افريقيا واستراليا .

وفى أى من هذه الحالات ، قد ترغب الأمة او الامم الباقية على قيد
الحياة فلول السكان القليلة فى الدول التى كانت دولا كبرى فى يوم من
الايام على الاستسلام والخضوع لحكم استبدادى فى عالم تستحيل فيه
مقاومة سلطان الدول التى قدر لها البقاء .

بلده ، فيما نتصور ، احدى الطرق التى قد يمكن توحيد العالم
بها . وهى ليست بالطريقة البهيجة ، كما انها ليست بالتأكيد السبيل
الذى ترحب به أى من الدول الكبرى التى تملك الآن الأسلحة النووية .
وعلى اية حال ، فانا لا اعتقد على الاطلاق فى احتمال وقوع مثل هذه
النتيجة الناجمة عن حرب نووية ، اذ ان الاحتمال الاكبر بكثير ان يصبح
الكيان الحضارى مستحيلا فى البلاد المحايدة والبلاد المحاربة على
السواء .

السبيل الى منع الحرب

سيكون السبيل المرغوب فيه أكثر من هذا بكثير والذى يضمن
الحصول على سلام عالمى، عن طريق الاتفاق بين الدول طوعية واختيارا

لكى تجمع ما لديها من قوات مسلحة ، وتخضع لهيمنة سلطة دولية متفق عليها ، وقد يبدو هذا في الوقت الحاضر أملا بعيدا وخياليا ، ولكن هناك ساسة عمليون يعتقدون عكس ذلك .

فقد قال المستر ماكميلان (فى مجلس النواب فى مارس ١٩٥٥)
منذما كان وزيرا للدفاع متحدثا بلسان الحكومة :

« بالنسبة لمشكلة نزع السلاح بأسرها فان غرضنا بسيط ، وسجلنا نظيف ، ان نزع السلاح الحقيقى يجب ان ينهض على مبادئ بسيطتين ولكنهما حيويتين . يجب أولا ان يكون شاملا ، واعنى بهذا انه يجب ان يشمل كافة الاسلحة ، القديم منها والجديد ، التقليدى وغير التقليدى . ويجب ان تمدنا الهيئة المسيطرة على نزع السلاح بسلطة دولية فعالة - او فوق القومية ، اذا شئنا هذا التعبير - تتمتع بقوة حقيقية . وقد يقول أعضاء المجلس الموقرون ان هذا معناه رفع مكانة الامم المتحدة ، او اية سلطة غيرها ، حتى تتحول الى نوع من الحكومة العالمية . ولو تم هذا لما كان فى الأمر ما يضر . وسيكون هذا على المدى البعيد المخرج الوحيد امام الانسانية » .

واستطيع ان اذكر اناسا آخرين عبروا عن آراء مماثلة وليسوا من الحاكمين ولا هم يفتفرون الى الحنكة السياسية ، ولكنى لست مهتما فى الوقت الحاضر ببحث الامكانية العملية لخلق حكومة عالمية ، ولكنى متفول باستمرار بقاء المجتمع المتحضر .

من الممكن خلق نوع ما من الحكومة العالمية دون ان يتحقق استقرار السلام العالمى . قد يحدث هذا مثلا لو ان الدول المختلفة، التى تشترك بالاسهام فى القوة المسلحة للحكومة العالمية ، امدت هذه الهيئة بفرق عسكرية قومية قد تحتفظ بوحدها القومية ، لحكومتها القومية فى وقت السدة والازمات بدلا من ان تدين بالولاء لسلطة دولية . ولعل من الجدير بالذكر ان نقدم مجملا « لسنور عالمى » من الممكن وضعه بحيث يستهدف تجنب مثل هذه الاخطار . وهذا المجمع مجرد اقتراح بطبيعة الحال ، وهو ليس بالنبوءة بكل تأكيد . فغرضى فحسب هو ان اوضح ان وضع دستور عالمى لمنع الحرب مسألة ممكنة .

سلطة عسكرية عليا

اذا شئت الحكومة العالمية ان تؤدى وظيفتها ، فيجب ان يكون لها سلطة تشريعية ، واخرى تنفيذية ، وان تكون لها سلطة عسكرية لا سبيل الى مقاومتها . والقوة العسكرية التى لا تقاوم هى اهم الشروط ، وهى ايضا اكبرها صعوبة عند التنفيذ . ولذلك فسابدا بمعالجتها .

ستجهد كافة الدول نفسها ملزمة بالوصول الى اتفاق من شأنه أن يخفض القوات المسلحة في أية دولة الى المستوى الضروري لأعمال البوليس الداخلية . وينبغي ألا يسمح لأية دولة أن تحتفظ بالأسلحة النووية أو أية وسيلة أخرى للخراب الشامل . وينبغي أن تكون للحكومة العالمية سلطة التجنيد من كل دولة ، وسلطة صنع مآثره لازما من الأسلحة . وفي عالم شينزع السلاح عن الدول المنفصلة فيه ، لن توجد ضرورة لكي تكون القوات العسكرية للحكومة العالمية كبيرة للغاية ، ولن تشكل هذه القوات عبئا باهظ التكاليف على كاهل مختلف الأمم الأعضاء .

ومن الضروري لمنع الانحراف نحو الولاء القومي في أي جزء من القوات الدولية أن نشتمل كل وحدة كبيرة بعض الشيء على جنسيات مختلفة . فلا ينبغي أن تكون هناك فرق أوربية أو فرق آسيوية أو فرق افريقية أو فرق أمريكية . بل ينبغي أن يكون هناك في كل مكان وكلما أمكن ذلك مزيج متعادل من الجنسيات (١) . وينبغي أن نعطي القيادات العليا ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا ، الى أناس من دول صغيرة لا يدعونها الأمل في السيطرة على العالم . ولا بد بطبيعة الحال من أن يتوفر للحكومة العالمية الحق في التفتيش حتى تضمن أن نصوص نزع السلاح متبعة ومعمول بها في كل دولة .

وبطبيعة الحال ، سيكون دستور الهيئة التشريعية دستورا فيدراليا . وينبغي على الدول المنفصلة أن تحافظ على استقلالها في كل شيء لا يتعلق بالحرب أو السلام . وتجاوب أي دستور فيدرالي صعبوبة عندما تكون الوحدات مختلفة جدا في الحجم . هل ينبغي عند التمثيل أن يكون لكل وحدة نفس الحق في التصويت أم أن تناسب القدرة التصويتية مع عدد السكان ؟

لقد أمكن في أمريكا كما نعرف جميعا التوصل الى حل وسط بارع ، وذلك بتطبيق مبدأ التمثيل على مجلس الشيوخ وآخر على مجلس النواب . ولكنني أعتقد على أية حال أنه من الأصلح تطبيق مبدأ مغاير لما هو متبع في الولايات المتحدة عند انشاء مجلس التشريع العالمي .

أعتقد أنه ينبغي أن تكون هناك فيدراليات فرعية متساوية في عدد سكانها على وجه التقريب ، كما ينبغي انشاء هذه الفيدراليات بحيث

(١) هذه الفكرة سبق لبرتراند راسل أن رددها في كتابه « التعقل والحرب النووية » .

(المترجم) Commonsense and Nuclear Warfare.

يتوخى فيها أن تكون على قدر من التجانس والانسجام ، وأن تربط بعدة مصالح مشتركة كلما أمكن ذلك .

وكلما اشترك عدد من الدول في الانضمام تحت لواء إحدى هذه الفيدراليات الفرعية ، فعلى الحكومة العالمية أن تدخل في اعتبارها العلاقات الخارجية بين الفيدراليات فقط دون تدخل من جانبها في العلاقات بين الدول المختلفة الداخلة في أية فيدرالية إلا إذا كانت هذه العلاقات تنطوي على خطر الحرب أو تتضمن الاتيان بعمل فيه انتهاك للدستور .

وستختلف كيفية تشكيل هذه الفيدراليات ، دون شك باختلاف الوقت الذي يتم فيه هذا التشكيل . فلو تم هذا التشكيل في الوقت الحاضر فإن الانسان يستطيع أن يقترح الترتيب الآتى :

١ - الصين .

٢ - الهند وسيلان .

٣ - اليابان واندونيسيا .

٤ - العالم الاسلامي من الباكستان الى مراكش .

٥ - افريقيا الاستوائية .

٦ - الاتحاد السوفييتي والدول التابعة له .

٧ - غرب أوروبا وبريطانيا وايرلندا واستراليا ونيوزيلندا .

٨ - الولايات المتحدة وكندا .

٩ - أمريكا اللاتينية .

وتشكل بعض البلاد التي لا تدخل ضمن هذا التقسيم بعض الصعوبات : مثل جنوب افريقيا ، وكوريا ، ومن المستحيل التخمين سلفاً بما قد يكون في أية لحظة بالذات أحسن ترتيب لمثل هذه الدول .

سيادة القانون :

ينبغي أن تمثل كل فيدرالية في مجلس التشريع العالمي بتسوية عدد سكانها . ولا بد من وجود دستورين : دستور يحدد علاقة الفيدراليات الفرعية بالفيدرالية العالمية ، ودستور آخر لكل فيدرالية فرعية تكون الفيدرالية العالمية ضامنة له .

وستؤازر الحكومة العالمية الفيدراليات الفرعية والدول الأعضاء

التي تتكون منها في أى إجراء دستوري . ولا ينبغي لها أن تتدخل في الشؤون الداخلية للفيدراليات الفرعية إلا في حالة اتيان أية فيدرالية بعمل يخرق الدستور ، كما ينبغي تطبيق نفس هذا المبدأ على العلاقات بين أية فيدرالية فرعية ومكوناتها من الدول القومية .

ما هي حدود السلطة الواجب تخويلها لمجلس التشريع العالمى ؟
فى الاعتبار الأول ، لا ينبغي أن تصبح أية معاهدة سيارية المفعول إلا اذا أقرها هذا المجلس التشريعى الذى يجب أن يدخل كذلك سلطة إعادة النظر فى المعاهدات الموجودة حاليا اذا جدت ظروف تجعل من المستحسن القيام بمثل هذا الاجراء . كما ينبغي أيضا أن يكون من حق مجلس التشريع العالمى أن يعترض على نظم التعليم التى تنتهج سياسة قومية عنيفة قد تشكل خطرا على السلام (١) .

وستدعو الحاجة الى انشاء مجلس تنفيذى أيضا ، ارى أن يكون مسئولاً أمام المجلس التشريعى . وعلاوة على الاحتفاظ بالقوات المسلحة، فوظيفة المجلس التنفيذى الرئيسية تلخص فى ازاحة الستار عن أى انتهاك لحرمة الدستور العالمى تقوم به أية دولة قومية أو مجموعة من الدول ، وتوقيع العقاب عند الضرورة على القائمين بأمر هذا الانتهاك .

وهناك مسألة أخرى بالغة الأهمية وهى مسألة القانون الدولى . فالقانون الدولى فى الوقت الحاضر على قدر ضئيل جدا من القوة . ومن الضروري أن يمنح تنظيم قانونى - كمحكمة العدل الدولية فى لاهى - سلطة تمثل نفس السلطة المخولة للمحاكم القومية .

واكثر من هذا ، فانى اعتقد انه يجب أن يكون هناك قانون عفويات دولى يحاكم بمقتضاه من يرتكبون جرائم شائعة ومستحبة فى بلادهم . لقد كان من المستحيل فى محاكمات نورمبرج مثلا أن يشعر الانسان بعدالة الاحكام الموقعة كنتيجة للنصر فى الحرب ، رغم أنه كان من الواضح أيضا أنه كان ينبغي ايجاد وسيلة قانونية لانزال العقاب على اقل تقدير ببعض الذين أدانتهم المحكمة .

واعتقد انه اذا ارادت مثل هذه الحكومة العالمية ان يكتب لها النجاح فى الاقلال من الدوافع الباعثة على الحرب ، فلا بد لها من أن تعمل جاهدة على الاقتراب الدائم من المساواة الاقتصادية فى مستوى المعيشة فى انحاء العالم المختلفة . فطالما ان هناك بلادا غنية وأخرى فقيرة فسيكون هناك حسد من الجانب الآخر . ولذلك فانه يجب أن

(١) يجب ملاحظة أن برتراند راسل يشارك القوميات المناضلة فى سبيل حريتها واستقلالها ، ويدين القوميات التوسعية المعتدية .
(الترجم)

تكون محاولة السير نحو المساواة الاقتصادية جزءا من السعى للحصول على سلام دائم واكيد .

وعلى أية حال فهناك احساس عام منتشر بكثير من الاعتراضات القوية على انشاء حكومة عالمية . والقومية منشأ قيام أشد هذه الاعتراضات ، لقد تزايد الشعور المشايخ للحرية القومية بسرعة في غضون المائة والخمسين عاما الأخيرة ، وإذا قدر للحكومة العالمية أن ترسي قواعدها فعليها أن تأخذ في اعتبارها هذا الشعور وأن تعمل كل ما في وسعها لارضائه .

والناس الذين يجادلون مدافعين عن الحرية القومية التي لا تخضع لأية قيود لا يدركون أن نفس الأسباب التي يستندون إليها تبرر الحرية الفردية غير المقيدة . اننى لن أسلم لاي انسان يحب الحرية ، لأنه اذا أردنا أن يتوفر للعالم أكبر قدر ممكن من الحرية ، فمن الضروري أن يخضع هذا العالم لقيود تحول دون الهجمات العنيفة على حرية الآخرين .

وهذا معترف به في الشئون الداخلية للدول : فجريمة القتل يعاقب عليها القانون في كل مكان . ولو ألغيت عقوبة القتل فستقل بذلك حرية الجميع باستثناء القتلة ، بل ستكون حرية القتلة نفسها في غالب الأحيان حرية قصيرة الأجل لان أمرهم سرعان ما سينتهى بالقتل . ولكن على الرغم من أن الجميع باستثناء حفنة قليلة من القوضويين يعترفون بهذا فيما يختص بعلاقة الفرد بالدولة القومية ، فإن هناك احجاما شديدا عن الاعتراف به فيما يتصل بعلاقات الدول القومية بالعالم ككل .

والمحاولات التي بذلت حتى وقتنا هذا لسن مجموعة من القوانين الدولية جديرة بالاعجاب حقا ، والمدى الذي استطاع القانون الدولي أن يصل اليه في اكتساب الاحترام العام مفيد حقا . ولكن المسألة ظلم اختيارية ، لكل دولة قومية أن تختار بين احترام أحكام القانون الدولي وبين عدم الاحتفال بها . فالدول العظمى تتمتع في الوقت الحاضر بامتياز قتل أعضاء الدول الأخرى كلما عن لها ذلك ، ولكنها تغلف هذه الحرية وراء ستار الحق في البطولة والاستشهاد في سبيل الدفاع عما هو رشد وصواب والوطنيون يدايرون على التحدث عن الاستشهاد في سبيل وطنهم ، ولا يتحدثون مطلقا عن اقرار جرائم القتل في سبيل وطنهم .

لقد اقررت معظم الدول في وقت أو آخر أعمالا لن يجد الحكومة العالمية مناصبا من وضعها بالأجرام ، ولكن بعض المدنيين البعثة في هذا المضمار قد حظى باعجاب وتقدير فريق من الناس يعتبرون أنفسهم

أحرارا . واكبر مثل على ذلك في التاريخ جدير بالذكر هو الإعجاب الذي يحمله أناس كـ « بيرون » و « هابنى » نحو نابليون .

وقبل أن تصبح الحكومة العالمية ممكنة ، سيكون من الضروري حمل الناس على ادراك استحالة دوام الفوضى الدولية الراهنة ، في وقت توجد فيه الاسلحة الحديثة للدمار الشامل .

ضبط النفس

والاعتراض القوى الآخر على قيام حكومة عالمية ، وخاصة من جانب الدول الشيوعية ، يتلخص في أنها قد تجمد الأوضاع الراهنة . وطالما أن الصراع بين الشيوعيين وأعدائهم سيبقى على ما هو عليه في ضراوة وحدة في الوقت الحاضر ، فسيصعب الوصول الى اتفاق على اقامة أية تنظيمات دولية يبدو من المحتمل أنها ستعوق انتقال الدول الأفراد من معسكر الى آخر .

سيكون من الممكن بطبيعة الحال أن تخول أحكام القانون الدولي لكل دولة الحرية في تنظيم اقتصادياتها الخاصة بالأسلوب الذى يروق لها ، ولكنه قد يثبت أنه من الصعوبة بمكان ضمان احترام هذه الحرية احتراماً حقيقياً . وإذا أرادت الحكومة العالمية أن تنجح في ارساء قواعدها ، فلا بد من زيادة التسامح بين أنواع الحكم القومى المختلفة بدرجة أكبر بكثير مما هو عليه في الوقت الحاضر . كما سيكون من الضروري التخلي عن جانب من اللذات الناجمة عن تأكيد الذات القومية .

قد تستمر كل دولة في التفنى بأنها أرفع شأنًا في كل أمر هام من سائر الدول الأخرى كما هو الحال الآن ، ولكن عندما تجتمع الدول من أجل التفاوض يجب على المتفاوضين أن يضبطوا أنفسهم ويمتنعوا عن التعبير العام عن شعورهم بالتفوق بحيث لا ينبو عن الذوق واللياقة . ولن يكون ضبط النفس هذا سهلاً أو يسيراً إذا استمرت المشاعر القومية على ما هى عليه من حدة في الوقت الحاضر .

وهناك نقطة جدل أخرى . كثيراً ما تستعمل في مناهضة انشاء حكومة عالمية فيقال : أنه سينجم عن اقامة حكومة عالمية ظهور خطر جديد يتمثل في الاستبداد العسكرى . وهو اعتقاد شائع - فما الذى سيمنع القوة الدولية المسلحة من القيام بتمرد عسكرى وتعيين فائدها امبراطورا على العالم ؟

ونفس هذه المشبهة بالضبط تواجه كل دولة قومية في الوقت الحاضر . ولكن السلطات المدنية في الأمم التى تحتل مركزاً الصدارة في العالم قد نجحت نجاحاً كبيراً في السيطرة على الاجهزة العسكرية .

عندما ازمع لينكولن تعيين قائد عام على القوات الشمالية في الحرب الأهلية الأمريكية حذر البعض من أن مرشحه سيسعى لإقامة ديكتاتورية . فكتب لينكولن إليه معبرا عن هذه المخاوف وأضاف :

« ان السبيل لإقامة ديكتاتورية هو تحقيق الانتصارات . سأطلع اليك من أجل تحقيق الانتصارات وسأجازف بالديكتاتورية .
وإثبتت الحوادث حكمة هذا القرار .

وفي الصراع الذي نتب في إنجلترا حول قانون الإصلاح (١) ، كان ولنجتون مندفا بعواطفه في معارضة هذا الإصلاح . ولكنه على الرغم من شهرته العريضة لم يخطر على باله قط أن يقود الجيش ضد البرلمان .

وفي روسيا عندما قلب ستالين ظهر المجن لمجموعة من الجنرالات لم يجد صعوبة في اعدامهم والاجهاز عليهم .

ليس هذا اذن سبب يدعو الى افتراض أن السيطرة على القوة العسكرية في ظل حكومة عالية ستكون أكثر صعوبة منها في ظل الحكومات القومية . وهذا خطرا لا بد للحكومة المدنية أن تنتبه اليه . ولكن ليس هناك سبب يدعو للاعتقاد بأن الطرق التي ستستحدث لمحاربة هذا الخطر سيكتب لها نجاح أقل من النجاح الذي ثبت أن الدول الكبرى في يومنا الحاضر قد حققتة .

الخوف كمصدر للتماسك الاجتماعي

هناك عائق نفسى خطير بعض الشيء يعترض سبيل انشاء حكومة عالية ، وفحواه أنه لن يكون هناك عدو خارجي يبعث على الخوف .

فالتماسك الاجتماعي ، في الحدود التي يكون فيها غريزيا ، يشجعه أساسا الاحساس بالخطر المشترك أو العداء المشترك . وهذا أكثر ما يكون وضوحا عندما يعهد الى شخص راشد برعاية مجموعة من الاطفال الأشقياء الذين لا ينصاعون لأمر . وطالما أن كل شيء يسوده الهدوء ، فمن الصعب حمل الاطفال على الطاعة . ولكن اذا حدث ما يخيف كعاصفة راعدة ، أو هجوم كلب مفترس ، فسيبحث الاطفال لتوهم عن شخص كبير يحتمون به ويطيعون أوامره بحذافيرها .

(١) قانون الإصلاح صدر في إنجلترا عام ١٨٣٢ ، وبصدوره قطعت إنجلترا شوطا كبيرا على طريق الديمقراطية .

(المترجم)

وينطبق نفس هذا المبدأ على الكبار ، وان لم يكن الأمر في حالتهم بمثل هذا الوضوح ، فالوطنية تكون أشد تأججا بكثير في وقت الحرب منها في أى وقت آخر ، كما أنه يوجد في ذلك الوقت استعداد واضح للانصياع حتى للمراسيم الحكومية الكريهة ، هذه الطاعة لا تقوم لها قائمة اذا كان السلام مستقرا .

ولن يكون في امكان الحكومة العالمية ان تستثير مثل هذا الدافع « للولاء » ، نظرا لأنها لن تجابه عداوة انسانية من الخارج (١) . واعتقد انه سيكون من الضروري ، كجزء هام من نظام التعليم تذكير الناس بالاطار الذى ستستمر في تهديدهم مثل الفقر وسوء التغذية والأوبئة، كما انه سيكون من الضروري تنبيههم كذلك الى ان فسلهم في الولاء للحكومة العالمية معناه ان الحرب العظمى قد تصبح محتملة مرة اخرى .

التعليم

على الرغم من ان كراهية الدول الخارجية تساعد على التماسك الاجتماعى فى سر لعله يفوق التماسك الاجتماعى الناجم عن أى عامل آخر ، الا ان الافتراض بأن شيئا اكثر ايجابية واكثر جدوى لا يمكن ان يحل محل هذه الكراهية ضرب من التناقض لا موجب له . فهذه المسألة بأسرها تعتمد على التعليم اكثر من أى شيء آخر .

لقد وفرت كل التطورات الفنية منذ الثورة الصناعية أسباب الزيادة فى حجم الدول . وبما أن كوكبنا محدود الحجم فهذه الأسباب الفنية تقودنا بقوة شديدة نحو اقامة حكومة موحدة للعالم بأسره .

كان حجم الدول فيما مضى يحدده أساسا التوازن بين قوتين معارضتين . فمن ناحية نرى حب القسوة والسلطان من جانب الحكومة ، ومن ناحية أخرى نجد حب الاستقلال من جانب المحكومين . والنقطة التى تجد فيها هاتان القوتان نفسيهما فى حالة توازن فى أية مرحلة من التطور تعتمد أساسا على التكنولوجيا (أو أسلوب الانتاج) السائد .

والزيادة فى سهولة النقل والتحرك ، وفى أسعار الأسلحة تجعل الوحدات الحكومية تميل لان تكون اكبر حجما . وعندما تكون الأسلحة رخيصة والانتقال بطيئا ، تميل الوحدة الحكومية المتسعة الرقعة الى عدم الاستقرار حينما تواجه بورة داخلية ، ولهذا السبب فهناك بوجه

(١) عاليج برتراند راسل العلاقة بين الخوف والتماسك الاجتماعى باستفاضة فى كتابه « السلطة والفرد » .

(المترجم)

عام اتجاه في الدول الى النمو في الحجم كلما درجت على سلم المدنية ،
وان تصغر كلما كانت المدنية في حالة تدهور .

واختراع البارود لم يزد في حجم الدول فحسب ، ولكنه زاد
ايضا من قوة الحكومة المركزية ، في كل دولة . ولكنه على كل حال لم
يخلق الظروف الفنية التي ينبغي توافرها لاقامة حكومة عالمية ، فهذه
الظروف لم تنشأ الا في وقتنا الحاضر .

تجديدات

كانت اول خطوة هامة هي ابراق الانباء وسرعة نقلها . وقد لعبت
السكة الحديد دورا هاما للغاية . واظن ان المرء يستطيع أن يفترض
انه لو كان نابليون يمتلك سكة حديد لتمكن من هزم روسيا عام ١٨١٢ .

ولكن التغييرات التي حدثت في القرن الذي نعيش فيه أهم بكثير
من السكة الحديد والتلغراف : أعني بهذا الانتصار على الفضاء (١) :
وأهم من ذلك اختراع الأسلحة النووية . ورغم أن هذا التقدم الفني
قد جعل الفوضى الدولية الراهنة أخطر بكثير جدا عما كانت عليه في أي
وقت مضى ، الا أنه قد جعل أيضا في الامكان من الناحية الفنية اقامة
حكومة عالمية يمكنها ان تباشر سلطاتها في كل مكان وأن تجعل المقايضة
والسلطة ضدها أمرا مستحيلا بالفعل .

ويرجع هذا الموقف الجديد أساسا الى ثلاثة ابتكارات علمية :
أولها وأهمها جميعا القدرة الهائلة على التدمير التي للأسلحة النووية
الحديثة . وبانيها السرعة الفائقة التي سنطيع بها هذه الأسلحة
الوصول الى أهدافها . أما التجديد الثالث فهو تكاليفها الباهظة . كل
هذه التجديدات تزيد من امكانية التضخم في حجم الدولة المستقرة .
وحني بومنا الحاضر ، فان امكانية التمدد في الحجم قاصرة على سطح
الارض ولكنها قد تمتد الى القمر والكواكب بأسرع مما نتصور .

هذه امكانيات ، ولكنها لن تنحقق الا اذا لم يدمر الجنس البشري
نفسه باستمساكه بقوالب سياسية جعلتها الأسلحة الحديثة عتيقة
بالية . واذا قدر لحكومة عالمية أن تعمل في سهولة ويسر فلا بد من تحقيق
شروط اقتصادية معينة ومن بين هذه الشروط ما بدأ يحظى باعتراف
شائع وهو رفع مستوى المعيشة في الدول المختلفة في الوقت الحاضر
حتى تصل الى المستوى الرغد السائد بين معظم السكان في الغرب .
وحتى يجيء اليوم الذي يتحقق فيه قدر معين من المساواة الاقتصادية في
مختلف أنحاء العالم . تستظل الامم الفقيرة تحمل الشعور بالحسد نحو
الامم الغنية ، وستخشى الامم الغنية أن ترتكب الامم الفقيرة أفعالا نتسم
بطابع العنف .

(١) الفضاء هنا ترجمة لكلمة air وليس لكلمة Space
(المترجم)

ولكن ليس هذا بأصعب اجراء اقتصادى قد تحتم الضرورة اتخاذه .
فهناك مواد خام مختلفة لازمة للصناعة . والبتترول فى الوقت الحاضر
من أهم هذه المواد . ومن المحتمل أن يصبح اليورانيوم ضروريا فى
الاستخدام الصناعى للطاقة النووية ، رغم أن الحاجة اليه لأغراض الحرب
سنتعدهم .

وليس من العدل أن يكون مل هذه المواد الخام الضرورية ملكا
خاصا لأحد . وأعتقد انه يجب أن نعتبرها من ضمن الملكية الخاصة غير
المرغوب فيها لا الملكية الخاصة التى يمارسها أفراد أو شركات وحسب ،
بل تلك التى تباشرها أيضا دول منفصلة . وينبغى أن نصبح المـواد
الخام ، التى يستحيل أن تقوم الصناعة بدونها ، ملكا لسلطة عالمية
تمنحها للدول المنفصلة حسب مبدأ العدالة ، والقادرة على استعمالها .
والاسم الذى تفتقر الى هذه القدرة ينبغى أن تساعد على اكتسابها .

الحرية

فى عالم مستقر كالذى نتصور قيامه ، من الممكن بشئى الطرق
تحقيق قدر أكبر بكثير من الحرية الموجودة حاليا . وستوضع على أية
حال بعض القيود الجديدة على الحرية حيث انه سيكون من الضرورى
غرس الولاء للحكومة العالمية ، وكبح جماح الاثارة والتحريض على الحرب
الذى تقوم به أمم بمفردها أو مجموعات من الامم .

وفيما عدا الخضوع لهذا القيد ، ينبغى أن تتوفر حرية الصحافة ،
وحرية الكلام ، وحرية الاسفار ، كما ينبغى اجراء تغيير جذرى عميق فى
نظام التعليم .

وينبغى الاقلاع عن تلقين النشء الافراط والمبالغة فى تأكيد
حسنات أوطانهم دون سائر الاوطان . والشعور بالفخر بمواطنيتهم
الذين أظهروا أكبر مهارة فى قتل الاجانب ، وينبغى الاقلاع كذلك عن
حكمة مسنر بودسناب التى تقول : « يؤسفنى أن أذكر أن الامم الاجنبية
تنتهج لنفسها منهجا فى الحياة يغير منهجنا ودونه » .

وينبغى تعليم التاريخ من وجهة نظر دولية مع الاهتمام الضئيل
بالحروب ، والاهتمام الشديد بالانتصارات السلمية سواء فى مجالات
المعرفة أو الفنون أو الاستكشاف أو المغامرة . ولا ينبغى للحكومة العالمية
السماح للسلطات التعليمية فى أية دولة بالهاب الشعور بالتفوق على
دول العالم الاخرى ، أو التحريض على العصيان المسلح ضد الحكومة
العالمية .

وباستثناء هذه العيود ، ينبغى أن تتوفر فى نظم التعليم حرية
أكبر بكثير من الحرية القائمة فى الوقت الراهن ، وأن يتوفر التسامح
مع الآراء غير المستحبة وغير الشائعة بين المدرسين ما دام لبست من
النوع الذى يسبب خطر الحرب ، كما ينبغى أن ينصب كل الاهتمام فى
سائر تعاليم التاريخ والمواد الاجتماعية « بالانسان » وليس بالامم المنردة
أو مجموعات الامم .

ان كلا من الافراد والجماعات يحرقها نوعان متعارضان من الحوافز أحدهما هو التعاون ، والاخر هو التنافس . وكل تقدم في الوسائل العلمية يزيد من مجال التعاون المرغوب فيه كما يقلل من المنافسة المرغوب فيها . وأنا لا أعني أن التنافس ينبغي أن يختفى كحافز ، ولكن ما أعنيه بالتأكيد ألا يتخذ التنافس صورة كالحافز الاذى بالغير على نطاق واسع ، وبخاصة في صورة الحرب بالطبع .

ينبغي أن يكون أحد الاهداف التي يسعى التعليم الى تحقيقها هو نوعية النشء بإمكانيات التعاون العالمي ، وخلق عادة التفكير في مصالح الانسانية ككل . وينبغي أن يكون هناك ، كنتيجة لمثل هذا التعليم ، نمو عام في مشاعر الصداقة والود ، مع الاقلال من دعاية الكراهية التي تكون حتى الآن جانبا من التعليم الذي تقدمه الدولة في معظم الاقطار .

المغامرة

من الناس من يشعر بأن العالم الذي يخلو من الحرب عالم يبعث على السأم والضجر . ويجب أن نعترف بأن كثيرا من الناس في العالم ، كما هو قائم الآن ، يعيشون حياة محدودة الأبعاد ، خالية من عناصر التسلية ، وأن بعضهم يشعر بأنه يستطيع على أقل تقدير أن ينجز شيئا على جانب من الأهمية ، ويتخلص من السأم والملل . فعندما ينقلون أنساء الحرب الى بلاد نائية تناح لهم الفرصة لمشاهدة أساليب في الحياة تغاير تلك التي ألفوها في بلادهم . وفي اعتقادي أنه يجب توفير المغامرة ، حتى المغامرة التي تنطوي على الأخطار ، في حياة من يرغبون فيها من السباب .

ستتطلب مثل هذه المغامرة ، التي تقوم في العادة على التعاون ، النظام والتعاون والاحساس بالمسئولية ، كما ستتطلب الطاعة أيضا . وجميعها أمور لا يشتد عود الانسان كما ينبغي بدونها ، وهي تكون في الوقت الحاضر أساس حب الانسان للحرب وينبغي توفير فرصة الالتحاق بالحملات العلمية التي تستهدف استكشاف منطقة القطب الشمالي ، ومنطقة القطب الجنوبي ، وجبال الهيمالايا ، وسلسلة جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية ، كما ينبغي توفير أسباب السفر الى الفضاء الذي أصبح وشيك التحقق لمن يتوق الى شيء على درجة أكبر من المخاطرة والمغامرة .

وعندما ينزاح عبء التسليح سيكون من الممكن توفير كل أسباب المغامرة التي يرغب فيها النشء المتململ البرم على نفقة الخزانة العامة مادامت لا تجلب الشقاء والمصائب في أعقابها ، ولا تنطوي على المجازفة بنهاية الانسان كما هو الحال الآن .

آمال

فاذا قدر لخطر الحرب أن يزول ، فستجتاز الانسانية فترة انتقال ، يجد في أثنائها أن أفكار الناس وعواطفهم لا يزال يسيطر عليها الماضي الأهوج المضطرب . وفي خلال فترة الانتقال هذه ، لا يمكن تحقيق كل مانصبو اليه من انتهاء خطر الحرب بصورة نهائية ، وسيستمر شعور التنافس المفرط ، ولن تكون الأجيال القادمة - على أقل تقدير -

لتلائم أفكارها مع العالم الجديد الذى سيكون فى طريقه الى الخلق والتكوين

وبينما يظل العمل من أجل إعادة تشكيل عقليــة الناس على قدم وساق ، ستكون هناك حاجة الى مجهود من الجائز أن ينضمين بعض القيود على الحرية حتى يتم اجراء التغييرات والملاءمة اللازمة . ولست أرى على أية حال استحالته تحقيق هذه التغييرات فتسعة أعشار الطبيعة البشرية على أقل تقدير تعتمد على التربية ، والجزء العاشر منها فقط يعتمد على الوراثـة . والجانب الذى يرجع الى التربية يمكن لنظام التعليم أن ينكسر بأمرة . ومن المحتمل أن يثبت فى الوقت المناسب أن الجزء الوراثى نفسه سيخضع لأنـر العلم فيه .

دعنا نفترض أنه قد أمكننا اجتياز فترة الانتقال بنجاح ، ولنسأل أنفسنا أى عالم هذا الذى نرجو اقامته كنتيجة لذلك . وما مصير الفنون والآداب والعلوم فى مثل هذا العالم ؟

أرى أنه يمكننا أن نأمل فى أن التحرر من عبء الخوف ، الخوف الاقتصادى الخاص ، والخوف العام من الحرب ، سيجعل روح الانسان تحلق فوق مشارف علوية لم يقدر للانسان أن يحلم بها حتى الآن .

لقد كان مفدرا على الانسان حتى وقتنا الراهن أن يخيب رجاءه وأمله وخياله بسبب ضيق امكانياته . وقد ظل يرنو الى الخلاص من الخوف واضعا رجاءه فى حياة أخرى فى السماء . أو كما يقول المتدين الزنجى : «عندما أقفل راجعا الى بيتى سأخبر الرب بكل متاعبى» .

ولكن ليس هناك سبب يدعو لانتظار السماء . وليس هناك سبب يجعل الحياة على الأرض لا تزخر بالسعادة ، كما أنه ليس هناك سبب يدعو خيال الانسان لأن يلتجئ الى الأساطير . فمن الممكن أن تكون حياة الانسان ، فى العالم الذى يستطيع خلقه اذا شاء ، حياة خلافة مطلقة فى اطار وجودنا الأرضى .

لقد نمت المعارف فى العصرالحديث بسرعة فائقة لدرجة أن اكتسابها أصبح قاصرا على قلة ضئيلة من الخبراء ، يملك القليل منهم الطاقة أو القدرة على مزجها بالاحساس الشعاعى والبصيرة الكونية . فالنظام البطليموسى فى الفلك وجد أحسن تعبير شعـرى له فى دانتي ، وكان مقدرًا عليه من أجل ذلك أن ينتظر نحو ألف وخمسمائة عام .

التحرير

اننا نقاسى من العلم غير المهضوم . ولكن فى عالم يتيح تعليمـة يتضمن درجة من المقامرة أكبر مما هى عليه الآن ، سيتمكن الانسان من أن يتمثل أكـداس العلوم غير المهضومة . وستتسع رحاب أشعارنا وفنوننا حتى تبلغ مشارف عوالم جديدة ، تجد لها تصويـرا فى ملاحم جديدة . وقد يكون من المتوقع أن يقود تحرير روح الانسان الى بهاء جديد ، وجمال جديد ، وسناء جديد كان مستحيلا فى عالم الأمس الحبيس الضارى .

وإذا أمكننا الانتصار على متاعبنا الحاضرة فسيستطيع الإنسان أن يتطلع إلى مستقبل يمتد إلى مدى يتضاءل معه ماضيه ، مستقبل يستوحي رؤيا جديدة عريضة ، وأملا دائما تغذية دوما انتصارات الإنسان المستمرة . لقد بدأ الإنسان بداية تليق بطفل - لأن الإنسان آخر الأنواع ، لا يزال في المهد من الناحية البيولوجية . وليس هناك حد لما يمكنه تحقيقه في المستقبل .

وانى لأرى عندما أسرح بخيالي عالما من المجد والفرح ، عالما تنطلق فيه العقول . ولا تكتنف فيه الظلمات أمل الإنسان ، عالما يبطل فيه دمغ النبل ووصمه بأنه خيانة لهذا الغرض الحسيس أو ذاك الهدف الدنيء . كل هذا يمكن أن يحدث إذا سمحنا له أن يحدث والأمر موكول لجيلنا لكي يختار بين هذه الرؤيا وبين فناء تسطره غباوتنا .

الفصل الرابع

عظماء في حياة برتراند رسل

(١) هـ . ج . ويلز

H. G. Wells

قابلت هـ . ج . ويلز لأول مرة في عام ١٩٠٢ في جمعية صغيرة للمناقشة أنشأها سيدني ويب وأطلق عليها اسم « القواسم المشتركة » أملًا في أن نتعاون للعمل بكفاءة فيما بيننا . وكان عددنا حوالي اثني عشر عضواً .

لم أكن قد سمعت عن هـ . ج . ويلز مطلقاً حتى ذكره ويب على أنه رجل كان قد دعاه لكي يصبح « قاسماً مشتركاً » وأخبرني ويب أن ويلز شاب كان يكتب في ذلك الوقت قصصاً على غرار جول فيرن . ولكنه كان يأمل عندما يذيع اسمه ويجمع ثروة عن طريق قصصه هذه أن يقف حياته على عمل أكثر جدية . وسرعان ما وجدت أنني كنت مختلفاً أشد الاختلاف مع معظم « العوامل المشتركة » بدرجة لا يمكنني معها الاستفادة من المناقشات أو إضافة أي شيء مفيد إليها . وكان سائر الأعضاء ماعداً ويلز وأنا استعماريين كما كانوا يتطلعون دون أن يصيبهم كثير من الجزع إلى حرب مع ألمانيا . واستهواني ويلز بسبب كراهيتنا المشتركة لوجهة النظر هذه . وكان ويلز يدين بالباديء الاشتراكية ويعتبر حينذاك - وأن كان قد تغير فيما بعد - أن الحروب حماقة وجنون . وتأزمت الأمور عندما دافع السير ادوارد جراي الذي كان في المعارضة - عما أصاب سياسة الدول الصديقة آنذاك مع فرنسا وروسيا ، تلك السياسة التي تبنتها حكومة المحافظين بعد قرابة عامين والتي دعمها ومكن لها السير ادوارد جراي عندما أصبح وزيراً للخارجية . وتحدثت مندداً في عنف ضد هذه السياسة التي شعرت أنها تفضي مباشرة إلى حرب عالمية ولكن الجميع باستثناء ويلز اختلفوا معي في الرأي .

وكانت نتيجة التعاطف السياسي بيننا أنني دعوت ويلز ومسز ويلز ليزوراني في باجلى وود بالقرب من اكسفورد حيث كنت أقطن في ذلك الوقت . ولم تكن الزيارة ناجحة تماماً .

اتهم ويلز زوجته في وجودنا بأنها تتكلم بلهجة العوام من اهل لندن وهو اتهام (فيما بدا لي) يمكن أن يوجه اليه عن جدارة واستحقاق اكبر . وهناك مسألة اجل شانا نشأت عن كتاب كان قد كتبه مؤخرا بعنوان « في أيام المذنب » (١) ويروى هذا الكتاب أن الارض تخترق ذيل مذنب يحتوى على غاز من شأنه أن يجعل كل انسان عاقلا . ويوضح الكتاب انتصار العقل والاعتزان بطريقتين . ان حربا مستعرة - كانت تدور رحاها بين انجلترا والمانيا - تتوقف بالاتفاق المتبادل ، وان كل انسان ينغمس ويستغرق في حب منطلق من كل القيود . وشنت الصحافة هجوما على ويلز لا لدفاعه عن السلام وانهاء الحرب ولكن لدفاعه عن الحب الطليق . فرد بنوع من الحرارة والحماسة أنه لم يدافع عن الحب المنطلق ولكنه مجرد انه تنبأ بنتائج ممكنة الحدوث لوجود عناصر جديدة داخلية في تركيب الجودون أن يذكر اذا كان يستحسن هذه النتائج ام يستهجنها ، وبدا لي هذا تلاعبا واحتيالا . وسألته : لماذا دافعت عن الحب بلا قيود بادية الامر ثم تراجعت بعد ذلك ؟ فأجاب بقوله انه لم يكن قد اقتصد بعد من حقوق التأليف والنشر ما يكفيه من مال حتى يمكنه أن يعيش على ريعها وانه لا يعتزم أن يجهر بدفاعه عن الحب المنطلق قبل أن يتم له ذلك . . . وكنت في تلك الايام متشددا ، من غير داع فأسأت هذه الاجابة الى .

وبعد ذلك لم ألتق به الا لما ما حتى انتهت الحرب العالمية الاولى . وعلى الرغم من موقفه السابق من الحرب مع المانيا فقد أصبح في عام ١٩١٤ مؤيدا للحرب مناديا بالقتال بشكل مفرط . واستحدث عبارة « شن حرب لانهاء الحرب » . وقال انه « متحمس لهذه الحرب ضد الروح العسكرية البروسية » . واعلن في ايام الحرب الاولى المبكرة أن الجهاز العسكري البروسي برمته قد اصابه الشلل امام حصون ليبج التي سقطت متهاوية بعد يوم او يومين فيما بعد . ورغم أن سيدنى ويب كان متفقا مع رأى ويلز في الحرب الا ان علاقته الودية به كانت قد توقفت بسبب عدم رضائه عنه من الناحية الاخلاقية من جانب . وبسبب قيام ويلز بحملة شائكة ضده حتى ينتزع منه زعامة الجمعية الفابية من جانب آخر . وقد عبر ويلز عن عدائه لعائلة ويب في قصص طويلة عديدة . ولم تهدأ نائرة هذا العداء ابدا .

وبعد انتهاء الحرب الاولى أصبحت علاقائى بويلز للمرة الثانية أكثر ودا وتوطدا . وكنت أحمل الإعجاب لكتابه « مجمل التاريخ (٢) » وخاصة الاجزاء الاولى منه . والفيت نفسى متفقا مع آرائه فى طاقة كبيرة من الموضوعات . لقد كان يحمل بين جنبيه طاقة وقدرة على تنظيم كميات

(١) In the days of the Comet

(٢) Outline of History

ضخمة من المواد . كانت عيناه تلمعان ببريق خاطف ، وكان المتحدث معه يحس خلال النقاش معه أنه كان يهتم بفحوى النقاش اهتماما موضوعيا أكثر من اهتمامه الشخصي بمن يجاذبه أطراف الحديث . وكانت عادتي أن أزوره في عطلات نهاية الاسبوع في منزله في اسكسن حيث كان يرافق ضيوفه في عصر أيام الاحاد لزيارة جارته الليدى وارويك .

وأهمية ويلز ناشئة من الكم في الانتاج أكثر من الكيف . ولكن يجب على الانسان أن يعترف بأنه كان متفوقا في بعض انواع انتاجه . فقد كان يجيد للغاية تصور سلوك الجماهير الجماعى في ظروف غير معتادة كما هو الحال مثلا في « حرب العوالم ١ » ، وتصنف بعض قصصه الطويلة بطريقة مقنعة أبطالا لا يختلفون عنه شخصا . وهو من الناحية السياسية واحد من الذين جعلوا الاشتراكية مذهبا له وزنه واحترامه في انجلترا وكان له تأثير كبير للغاية على الجيل الذى تلاه لا من الناحية السياسية فحسب بل في مسائل الاخلاقيات الشخصية . وكانت معلوماته مترامية الأطراف وان لم تكن تنقسم بالعمق فى أى من المواضيع ، وكانت له على كل حال بعض الاخطاء التى انتقصت نوعا ما من قدره كحكيم فقد كان يجد أن أعراض الناس عنه أمر لا نطاق وكان يتنازل عن أشياء أمام الصيحات الشعبية المتعالية مما كان ينتقص من الانسجام والتماسك في تعاليمه . وحينما أصابه الانزعاج والقلق بسبب اتهامات الانحلال والخيانة الجنسية التى وجهت اليه شاء أن يكتب قصصا من الدرجة الثانية بعض التى يهدف من ورائها الى أن ينفى مثل هذه الاتهامات عن نفسه « كروج أسقف » (٢) أو قصة الزوج والزوجة اللذين يشرعان في العراق والتشاحن ويقضيان الشتاء في لابرادور حتى يضعوا حدا لهذا التشاجر ثم يصفوا الجو بينهما بسبب معركة يخوضانها سويا ضد هجمة دب ، وفي آخر مرة رأيته فيها وكانت قبل وفاته بوقت قصير تحدث في جدية تامة عن الاضرار الناشئة عن الانقسامات في جبهة اليسار ، وفهمت - رغم أنه لم يقل هذا صراحة - انه يعتقد أنه يجب على الاشتراكيين أن يزيدوا من تعاونهم مع الشيوعيين أكثر مما كانوا يفعلون . ولم يكن هذا رأيه وهو في قمة قوته وذروة نشاطه عندما اعتاد أن يسخر من لحية ماركس ويحث الناس على عدم تبني أصول الماركسية الجديدة .

وتتلخص أهمية ويلز أساسا في أنه محرر للفكر والخيال . فقد كان قادرا على بناء صور المجتمعات ممكنة بطريقة وضاعة هادئة للغاية أحيانا . وقصته « بلد العميان ٣١ » ان هى الا قصة الكهف الرمزية عند

The War of the worlds (١١)

The Soul of a Bishop. (٢)

The country of the blind (٣١)

أفلاطون في لغة عصرية وقال بمتشائم بعض الشيء . وكان يقصد من « مدنه المثلى » - رغم انها ليست راسخة في حد ذاتها - إثارة سلسلة من الافكار قد يثبت جدواها . وهو عقلى دائما ويتجنب صور الخزعبلات المختلفة التى يتعرض عقل الانسان الحديث للانزلاق فيها . وإيمانه بالمنهج العلمى إيمان صحيح ويبحث على القوة . ورغم أن تفاؤله يصعب التمسك به نظرا لحالة العالم الراهنة إلا أنه من المحتمل جدا أن يقود الى نتائج طيبة أكثر مما يقودنا اليها التساؤم المتراخى الكسول بعض الشيء الذى أصبح شائعا فى كل مكان أكثر مما ينبغي . وعلى الرغم من بعض التحفظات فأنى أعتقد أنه يمكن لنا اعتبار ويلز كقوة هامة تدفع الى التفكير العاقل البناء فيما يتعلق بالانظمة الاجتماعية والعلاقات الشخصية على حد سواء . وأمل أن يجيء بعده من يخلقونه ولو أتى لا أعرف فى الوقت الراهن من سيكونون له خلفاء .

كانت معرفتي بلورنس قصيرة ومضطربة ، دامت في مجموعها ما يقرب من عام . وقد جمعنا معا الليدى « اتولين مورل » التى كانت تكن لكلينا الاعجاب والتى جعلتنا نعتقد انه ينبغي علينا (لورنس وأنا) ان نتبادل الاعجاب . كانت الدعوة الى السلام قد ولدت في نفس شعورا بالثورة المريرة ، ووجدت في لورنس ثورة عارمة كالتى كانت تعمل في صدرى ، مما جعلنا نظن بادىء الامر ان هناك وشائج كثيرة من الوفاق الفكرى تربط الواحد منا بالآخر . وقد تبينا فيما بعد ، ان شقة الخلاف التى تفصل بيننا أبعد من خلاف أى منا مع امبراطور ألمانيا .

وكان يتنازع وجدان لورنس حينذاك موقفان من الحرب : فمن ناحية ، لم يكن فى وسعه ان يكون وطنيا بكل جوارحه لان زوجته كانت المانية . ومن ناحية أخرى بلغت كراهيته للانسانية حدا جعله يميل الى التفكير ان كلا الجانبين لابد ان يكون على صواب فى الكراهية التى يحملها كل منهما للآخر . وعندما تكشف لى هذان الموقفان ، ايقنت انه لا يمكن لى ان اعطف على أى موقف منهما . ولكن ادراكنا لوجه الخلاف بيننا كان بالتدريج على أية حال ، واستمرت علاقتنا فى بادىء الامر سعيدة مرحة كأجراس العرس . ودعوته لزيارتي فى كامبريدج حيث قمت بتقديمه الى كنيس Keynes والى عدد اخر من الناس . ولكنه قابلهم جميعا بروح الكراهية ، ووصفهم جميعا بأنهم « موتى ، موتى ، موتى » . وظللت فترة من الزمن اعتقد انه من الجائز ان يكون على صواب ، فقد أحببت عواطف لورنس المتقدة ، كما أحببت فيه الايمان بحاجة العالم الى شيء جوهرى للغاية ، لاصلاح شأنه . وكنت متفقا معه فى التفكير فى استحالة فصل السياسة عن النفسية الفردية ، وأشعر انه رجل تتسم عبقريته الأكيدة بالخيال . وفى البدء عندما كنت اميل الى الاختلاف معه ، كنت اظن ان بصيرته النفاذة فى ادراك الطبيعة البشرية تفوق بصيرتى عمقا . ولم يصل الحال بى ان أشعر بقوة الايجابية على الشر الا بالتدريج ، وانتهى الأمر بأنه أصبح يشعر بحوى يمثل الذى كنت أشعر به نحوه .

كنت فى ذلك الوقت منصرفا الى تحضير سلسلة من المحاضرات التى نشرت فيما بعد بعنوان « مبادئ إعادة البناء الاجتماعى (١) » وكان هو أيضا يرغب فى القاء المحاضرات ، وبدأ لى حينذاك انه من الممكن ان ينشأ بيننا نوع من التعاون الخفيف . وتبادلنا عدد من الرسائل اضعاع هو ما ارسلته اليه ، ولكن رسائله رأت طريقها الى النشر .

ومن الممكن لمن يتتبع رسائله أن يدرك تدريجا شعورا بخلافاتنا الجوهرية، فقد كنت شديد الايمان بالديموقراطية ، في حين أنه استولد كل الفلسفة الفاشية قبل أن يفكر رجال السياسة فيها . وكتب يقول : اننى لا أؤمن بالسيطرة الديموقراطية . وفى رأى أن العامل يصلح لانتخاب حكام ورؤساء لخدمة احتياجاته المباشرة فقط . لا بد أن تعيدوا النظر كلية فى نظام الناخبين بحيث يحقق للعامل انتخاب رؤساء للامور التى تعنيه مباشرة ، وبحيث يتم انتخاب السلطة العليا من الطبقات الاخرى الناهضة . ويجب أن يتبلور النظام الاجتماعى فى آخر الأمر فى رأس واحد حقا كما هو الحال فى كل كائن حى - لا جمهوريات سخيقة يرأسها رؤساء جمهوريات سخفاء بل ملك منتخب ، شئ أشبه مايكون بيوليوس قيصر » . وهو بطبيعة الحال يفترض فى تصوراتيه أنه سيصبح يوليوس قيصر المنتظر هئد ارساء أسس النظام الديكتاتورى . وكان هذا جانبا من طبيعة تفكيره الحالم الذى لم يسمح له بالنزول الى الواقع أبدا . وكان ينفجر فى خطب هجومية طويلة ، متحمسة يعلن فيها ضرورة اذاعة الحقيقة على الجماهير . ويبدو أن الشك لم يتطرق اليه فى أن الجماهير بهتنت الىه . وسألته عن الاسلوب الذى يعتمز اتباعه فى هذا الصدد . هل سينشر كتابا يتضمن فلسفته السياسية ؟ فكان جوابه بالنفى « لا ، فالكلمة المكتوبة فى مجتمعنا الفاسد تبدو اكذوبة دائما » . وعندما سألته ، اذا كان سيذهب الى هايد بارك ليعلن الحقيقة من فوق صندوق للصابون ، أجاب بالنفى أيضا « لا فسيكون هذا اخطر مما ينبغى » . (وكانت تصدر عنه من وقت لآخر دلائل الحيلة والحصافة) وكلما سألته عما عساه أن يفعل ، كان يعتمد الى تغيير الموضوع .

واكتشفت بالتدريج أن رغبته فى خلق عالم أسعد لم تكن صادقة ، وأنه يرغب فقط فى أن يدخل فى مناجاة بليغة مع نفسه حول فساد هذا العالم . فاذا ترامت هذه المناجاة الى مسامع أحد ، كان خيرا وبركة . ولكنه كان يقصد بها على أحسن تقدير خلق نفر قليل من التلاميذ والمريدين المخلصين الذين يستطيعون أن يعيشوا فى صحراء « نيومكسيكو » ويشعروا بقدسيته . وقد نقل لورنس كل هذا الى لغة الدكتاتور الفاشستى محمدا ما ينبغى على أن أبشر به ، مؤكدا اياه فى الحاح واصرار .

وأصبحت رسائله أكثر عداوة عن ذى قبل فقد كتب الى قائلا « ما الفائدة فى أن تحيا على هذا النحو على أية حال ؟ اننى لا اعتقد أن محاضراتك حسنة ، لقد أوشكت محاضراتك على الانتهاء . اليس كذلك ؟ ماجدوى الالتصاق بالسفينة الملعونة ومخاطبة الحجاج التجار بلغتهم الخاصة ؟ لماذا لا تلقى بنفسك من سطح السفينة الى عرض البحر ؟ لماذا لا تخرج تماما من الاستعراض كله ؟ لا بد للانسان أن يكون خارجا على العانون فى هذه الايام لا معلما أو مبشرا » . وقد بدا لى أن هذا لا يعدو أن يكون مجرد خطابة ، فقد أصبحت خارجا على القانون أكثر

مما كان هو عليه في أية فترة في حياته . ولم أستطع أن اتبين بالضبط سبب شكواه منى . وقد دأب على صياغة شكواه في أساليب مختلفة في أوقات مختلفة . وفي مناسبة أخرى كتب يقول « توقف عن العمل والكتابة تماما ، وكن دائما كائنا حيا بدلا من أن تكون آلة ميكانيكية . ابتعد تماما عن السفينة الاجتماعية كلها ، وكن مجرد لا شيء صونا لسكربائك : كن كالخلد كائنا حيا يشعر ولا يفكر . ولتكن من أجل السماء طفلا ، ولا تكن عالما بعد الآن . لا تفعل أى شيء أكثر من هذا -- ولكننى أستحلفك بالسموات أن تبدأ فى أن تكون . أبدأ من أول الطريق وكن باسم الشجاعة طفلا كاملا » .

« اه انى أريد أن أطلب منك عند كتابتك لوصيتك أن تترك لى من المال مايكفى لان أعيش به . وانى أرجو لك أن تعيش الى الابد ولكنى أريد منك أن تجعلنى وريثا جزئيا لك » والصعوبة الوحيدة التى تعترض هذا الطلب هى اننى لو قمت بتنفيذه ، لما وجدت شيئا أورثه بعد وفاتى .

وكانت له فلسفة في « الدم » تصوفية تثير كراهيتى . فقد قال : « هناك مركز آخر للشعور غير المخ والاعصاب » .

هناك شعور بالدم موجود فينا ومنفصل عن الشعور الدهنى العادى . فالإنسان يعيش ويعرف وله كينونته فى الدم دون أن تكون هناك أية صلة بالاعصاب والمخ . وهذا يكون نصف الحياة التى تنتمى الى الظلام . فعندما أعاشر امرأة ، يسود مبدأ الدم كل شيء ومعرفتى التى استعدها عن طريق الدم تطفى على كل شيء . وينبغى علينا أن ندرك أن لنا وجودا فى الدم ، وشعورا فى الدم ، وروحا فى الدم كاملا ومنفصلا عن أى شعور ذهنى وعصبى . وبصراحة ، بدا لى أن هذا لغو أجوف ورفضته بشدة . ولم أكن أتخيل حينذاك أن هذه الفلسفة ستفضى الى معتقل أستوتشز (١) على الفور .

وحين اعترضت على الحرب بسبب ويلاتها اتهمنى بالنفاق وقال : « ليس من الحقيقة فى شيء أنك - أنت ونفسك الاصيل - تريد السلام . أنك ترضى شهوتك للاضراب والمساكسة بطريقة زائفة غير مباشرة . فاما أن ترضيها بطريقة مباشرة شريفة ، وتقول « اننى أكرهكم جميعا أيها الكذبة والخنازير وهانذا خارج لأتبرى للهجوم عليكم أو أن تتمسك بالرياضيات حيث تستطيع أن تكون صادقا ، وأمين . أما أن تظهر بمظهر ملاك السلام ، فلا . وأنا أفضل ألف مرة أن يلعب أمير البحر قيرتيز (٢) هذا الدور » . اننى أجد صعوبة الآن فى فهم الاثر المخرب

(١) Auschwitz معسكر اعتقال نازى معروف
(٢) Tirpitz ادميرال فى البحرية الالمانية فى الحرب الاولى .

الهدام الذى تركه هذا الخطاب فى نفسى . وكنت أميل الى الاعتقاد بأنه .
يمتاز بنوع من البصيرة التى لم تتوفر لى . وعندما قال لى أن دعوتى
للسلام تستمد جذورها من شهوة دموية ، افترضت أنه لا بد مصيب
فيما يقول وظللت أفكر مدة أربع وعشرين ساعة فى أننى لا أصلح للحياة ،
وفكرت فى الانتحار . ولكن رد فعل أكثر صحة تغلب على هذا التفكير فى .
نهاية هذه المدة ، وقررت أن أنقض عن نفسى مثل هذه الافكار المريضة .
وعندما قال لى أنه يجب على أن أبشر بمبادئه ، ولا بمبادئى ثرت فى وجهه
وذكرته أنه لم يعد مدرسا واننى لست تلميذا له . لقد كتب يقول :-
« انك عدو الانسانية بأسرها ، مفعم بشهوة العداوة والكراهية » وأنت .
لا تستلهم كراهية الزيف بل تستوحى كراهيتك الناس الذين يتدفق
الدم فى عروقهم وأجسادهم حارا . وما هذه الكراهية الا شهوة دم ،
ذهنية منحرفة ، لماذا لا نعرف بهذا ؟ واستمر لبضعة أشهر ، يكتب لى
خطابات تحوى من شعور المودة والصداقة ما يكفى لاستمرارنا فى
التراسل . ولكن علاقتنا أصابها الفتور فى نهاية الامر ، وذوت دون أية
خاتمة درامية . والذى جذبنى الى لورنس فى بادىء الامر صفة ديناميكية .
اكيدة كانت تميزه ، وعاداته فى تحدى الافتراضات التى يتقبلها الانسان .
على أنها مسلمة لا يرقى اليها الشك . وكنت حينذاك قد اعتدت أن .
اتهم بعبوديتى المفرطة للعقل ، واعتقدت أنه ربما يستطيع أن يعطينى .
جرعة منعشة من اللا عقل . ولا شك أننى اكتسبت منه منبها وحافزا .
وأظن أن الكتاب الذى كتبته رغم ريح هجومه العاتية ، أفضل نوعا مما
لو كنت قد كتبته بدون أن أعرفه .

وهذا لا يعنى أن هناك شيئا حسنا فى افكاره . وأنا لا أعتقد
عندما أعود بذاكرتى الى الوراء أن افكاره كانت تمتاز بشيء أكثر من .
أفكار ديكتاتور للمستقبل مستبد ، حساس كان يصب غضبه على العالم .
لأنه يرفض أن يطيعه على الفور . وعندما أدرك أنه لا يعيش بمفرده
فى هذا الكون ، كره الناس ، ولكنه كان يعيش معظم الوقت منطويا
على نفسه فى عالم من صنع خياله ممتلئ بأطياف عنيفة كما شاء لها
أن تكون . ويرجع تأكيده المفرط للجنس الى أنه فى الجنس وحده كان
مضطرا للاعتراف بأنه لم يكن الانسان الوحيد الموجود فى الكون . ولأن
هذا الاعتراف كان أليما على نفسه ، دعاه هذا لأن يرى أن العلاقات
الجنسية قتال دائم يسعى كل جانب فيه الى تدمير الجانب الآخر .

لقد كان العالم فى فترة ما بين الحربين ينحرف نحو الجنون .
وكانت النازية أصدق تعبير عن هذا الانحراف ، وكان لورنس المدافع .
المناسب عن مذهب الجنون هذا ، ولست على يقين من أن عقل ستالين .
السليم البارد غير الانسانى كان أحسن حالا .

(٣) جورج برناردشو George Bernard Shaw

يمكن تقسيم حياة برناردشو المديدة الى ثلاث مراحل . المرحلة الاولى حتى سن الاربعين ، وكان معروفا فيها كناقذ موسيقى ، وعضو مجادل في الجمعية الاشتراكية الفابية (١) وروائي جدير بالاعجاب ، وصاحب نكتة ذات خطر ضد الزيف والادعاء ثم كانت المرحلة الثانية ككاتب هزلى . وفي مبدأ الامر لم ينجح في أن تمثل مسرحياته على خشبة المسرح لانها لم تكن تشبه تماما مسرحيات بنيرو Pinero حتى أدرك مديرو المسرح أخيرا أنها مسلية فأصابت نجاحا عن جدارة واستحقاق . واعتقد أن الأمل كان يراوده طيلة حياته الاولى في أن يتمكن من تأدية رسالته الجادة بصورة فعالة بعد أن يتحقق له اجتذاب النظارة اليه كمضحك . ولهذا فقد ظهر في مرحلته الثالثة والأخيرة كنبى يدعو الى الاعجاب بكل من القديسة جان دارك الاتية من أورليانز والقديس جوزيف الاتى (٢) من موسكو . لقد عرفته في كل هذه المراحل الثلاث ورأيت أنه كان في المرحلتين الاولى والثانية ممتعا ومفيدا - ولكننى وجدت على كل حال أن اعجابى به في المرحلة الثالثة كان محدودا .

وسمعت عنه لأول مرة في عام ١٨٩٠ عندما قابلت وأنا طالب مستجد في الجامعة طالبا مستجدا آخر كان معجبا بكتابه خلاصة الابسنية ، (٣) . ولكننى لم أقابله حتى عام ١٨٩٦ عندما اشترك في مؤتمر اشتراكي دولي عقد في لندن . وكنت أعرف عددا كبيرا من المندوبين الالمان نظرا لاننى قد درست الحركة الديموقراطية الاشتراكية الالمانية . وكانوا ينظرون الى شو على أنه تجسيد للشيطان لأنه لم يكن في وسعه مقاومة اللذة التى يحس بها عندما يزداد النزاع الناشب تطورا ، ولكننى على كل حال استمددت رأبى فيه من عائلة سيدنى ويب وأعجبت بمقاله الاشتراكي الفابي الذى حاول فيه تنحية الاشتراكية البريطانية بعيدا عن تأثير ماركس . وكان لا يزال حتى ذلك الوقت خجولا . وفي رأبى انه كان يتسلح في واقع الامر بنكاته مثله في ذلك مثل الكثيرين من أهل الدعاية المشهورين كنوع من الدفاع ضد السخرية والهجوم الذى يتوقعه ، وفي هذا الوقت كان قد بدأ لتوه في كتابة المسرحيات وجاء الى شقتى ليقرا احدى هذه المسرحيات على جمع صغير من الاصدقاء . . كان الاصفرار يعلو وجهه كما كانت أوصاله ترتعش من فرط الاضطراب . وبدأ أبعد ما يكون عن الشخص الفظيع المروع الذى تحول اليه فيما بعد . وبعد ذلك بوقت

(١) Fabian نسبة الى الجمعية الفابية في انجلترا التى كانت تنادى بالاشتراكية السلمية على عكس اشتراكية ماركس الثورية .
(٢) يقصد راسل سائرا جوزيف ستالين بطبيعة الحال .

(٣) The quintessence of Ibsenism

مقصير مكتنا سويا مع عائلة سيدنى ويب فى مونموتشير انصرف خلالها الى تعلم فن التأليف الدرامى - فكان يكتب كل أسماء أشخاص مسرحيته على مربعات صغيرة من الورق وعندما كان يؤلف منظرا مسرحيا كان يضع على لوحة شطرنج أمامه أسماء الشخصيات التى تظهر على خشبة المسرح فى ذلك المنظر .

وفى هذا الوقت وقعت لكلينا حادثة دراجة خشيت لحظتها انها قد تعجل بمستقبله . كان حينذاك قد بدأ يتعلم ركوب الدراجة فارتطم بدراجتى بقوة عظيمة أطاحت به فى الهواء وألقته على ظهره على مسافة عشرين قدما من مكان الاصطدام . ولكنه نهض على أية حال دون أن يصيبه اذى على الاطلاق . واستمر فى ركوب دراجته بينما تحطمت دراجتى مما اضطررنى الى العودة بالقطار . وكان قطارا بطيئا للغاية وفى كل محطة كان يظهر بدراجته على الرصيف ويدخل رأسه داخل العربة مستهزئا . وانى أشك فى أنه كان يعتبر الحادث دليلا على فضيلة الحياة النباتية .

وكان تناول طعام الغداء مع مستر شو وزوجته فى أدلفى تراس Adelphi Terrace تجربة غريبة بعض الشيء . كانت مسز شو سيدة بيت على درجة عظيمة من الكفاءة وكان من عادتها أن تقدم الى شو وجبات نباتية لذيذة الطعم للغاية لدرجة أن الضيوف كانوا يتحسرون بشكل ظاهر على قائمة طعامهم التقليدية . ولم يكن فى مقدوره أن يقاوم ترديده المتكرر بعض الشيء لحكاياته الاثيرة اليه . وكلما عرض شو لخاله الذى انتحر بأن وضع رأسه فى حقيبة سفر مصنوعة من القماش ثم أغلقها عليها - بدت على وجه مسز شو علامات حُجر مروع لدرجة أن الجالس بجوارها كان يحرص على الانصراف عن الاستماع لشو حتى لا يضايقها . ولكن هذا على كل حال لم يمنعها من اظهار الاهتمام به . وانى اذكر مأدبة غداء حضرتها شاعرة شابة جميلة آملة أن تقرا قصائدها على شو . وعندما حان وقت انصرافنا وقمنا يتوديعه - أخبرنا شو أنها ستتخلف لهذا الغرض . ومع ذلك فقد وجدناها عند رحيلنا قد سبقتنا الى الباب الخارجى بعد أن نجحت مسز شو فى التخلص منها بطرق لم يكن من حظى أن نحظها . وعندما بلغنى بعد هذا بوقت غير طويل أن نفس هذه السيدة كانت قد هددت ويلز ببيع نفسها لانه رفض أن يستجيب لفرامها تزايد احترامى لمسز شو عن ذى قبل .

ولم يكن اهتمام زوجة شو به أمرا ذا بال فعندما أشرف وزوجته مع ويلز وزوجته على الثمانين جاءوا جميعا لرؤيتى فى بيتى فى سووث دونز - وكان للبيت برج يطل على منظر بدیع للغاية . وارتقى جميعهم بالدرج لرؤيته - وكان شو أول الصاعدين ومسز شو آخرهم . وجاء

صوتها من أسفل طيلة الوقت الذى قضاه فى الصعود يناديه «ج.ب.س» لا تتحدث وأنت تصعد السلالم . ولكن نصحتها لم يأت بنتيجة على الإطلاق فقد انطلق منه فيض من الحديث لم ينقطع . وكان هجوم شو على الزيف والتناق فى العصر الفيكتورى مفيدا كما كان ممتعا . ومن أجل هذا يدين له الانجليز بالفضل والعرفان بالجميل ما فى ذلك شك . كانت محاولته اخفاء الغرور والزهو جزءا من الزيف الفيكتورى . وفى شبابى كنا جميعا نتظاهر بالتفكير فى اننا لا نفضل جيراننا . ووجد شو أن هذا الادعاء يبعث على الملل والسام فتخلى عنه عند ظهوره للعالم لأول مرة - لقد كان من عادة الناس الاذكياء أن يقولوا أن شو لم يكن مزهوا بنفسه بشكل غير عادى ولكنه كان صادقا وصريحا بصورة شاذة . وقد انتهت فيما بعد الى التفكير فى بطلان هذا الزعم - فقد شاهدت بنفسى حادثين اقنعانى بهذا، وكانت اولاهما مأدبة غداء اقيمت فى لندن لتكريم برجسون ، كان شو قد دعى اليها بصفة كونه معجبا به مع عدد من الفلاسفة المحترفين الذين كانوا يقفون من برجسون موقف النقد . وبدأ شو فى عرض فلسفة برجسون والدفاع عنها بنفس الاسلوب الذى كتب به مقدمة متوشالغ (١) وكان من الصعب لهذه الفلسفة حسب عرض شو لها أن تروق فى اعين المحترفين من الفلاسفة . فاعترض برجسون بلطف عليه قائلا فى لكتته الاجنبية « آه - لا آه هذا ليس مضبوطا تماما » (١) ولكن شو لم يستح أو ينجعل على الإطلاق بل أجاب « اه يازميل العزيز - اننى أفهم فلسفتك أكثر بكثير مما تفهمها أنت » وضغط برجسون على قبضتى يديه وكاد ينفجر غاضبا ولكنه تمالك نفسه بجهد جهيد واستمر شو فى عرض فلسفته بمفرده .

وتتلخص الحادثة الثانية فى أنه قابل مازاريك Masaryk الاكبر الذى جاء الى لندن فى زيارة رسمية والذى لمح من طرف خفى من طريق سكرتيره الى رغبته فى أن يرى بعض الناس فى الساعة العاشرة صباحا قبل أن يبدأ فى انجاز مهام زيارته الرسمية . وكنت واحدا منهم وعندما وصلت اكتشفت أن الأشخاص الآخرين هم شو وويلز وسوينرتون Swinnerton ووصلنا جميعا فى الميعاد ماعدا شو الذى جاء متأخرا والذى تقدم لا يلوى على شيء نحو الرجل العظيم وقال له : « مازاريك . ان سياسة تشيكوسلوفاكيا سياسة خاطئة تماما » وشرح وجهة نظره فى حوالى عشرة دقائق وانصرف دون أن ينتظر رد مازاريك عليه .

(١) Mathuselah وهى مسرحية معروفة لشو

(٢). هذه العبارة الغريبة فى النطق فاه بها برجسون بلكتته الاجنبية

وهى : It is not quite zat

وكان شو مثل انكثيين من اصحاب النكتة يعتبر أن النكتة بديل تكاف للحكمة . وكان يدافع عن اية فكرة مهما كانت سخيفة بلذكاء من شأنه أن يجعل أولئك الذين يرفضونها يبدون كالمففلين . وقابلته ذات مرة في مادبة « غداء ابرهون » (١) أقيمت لتكريم صامويل بتلر وطمعت لدهشتي أنه كان يقبل كل كلمة فاه بها ذلك الحكيم على أنها انجيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - كما يقبل حتى النظريات التي قيلت على سبيل المزاج لا غير ، كالزعم بأن الاوديسا قد كتبتها امرأة . وكان أثر بتلر عليه أكبر بكثير مما يدرك معظم الناس . فقد أخذ منه شو كراهيته لداروين مما جعله فيما بعد معجبا ببرجسون . ومن الامور العجيبة ان الآراء التي اعتنقها بتلر حتى يجد لنفسه عذرا ينتحلها للاختلاف مع داروين قد أصبحت جزءا من المذهب الرسمي الاصيل المفروض على الاتحاد السوفيتي .

وليس هناك سبيل للدفاع عن احتقار شو للعلم . وهو يشبه تولستوى في عدم استطاعته الايمان بأهمية أى شيء كان يجهله . وكان حادا عنيفا في هجومه على تشريح الحيوانات الحية . واطن أن السبب لم يكن كامنا في عطفه على الحيوانات ولكن في عدم ايمانه بالمعرفة العلمية التي يوفرها لنا تشريح الحيوانات الحية . واطن أن مذهبه النباتي كذلك لا يرجع الى بواعث رحمة بل لعله يرجع الى نوازهة التي تنطوى على قهر البدن والتي عبر عنها تعبيرا كاملا في الفصل الاخير من مسرحية « متوشالغ » . وكان احسن ما في شو يظهر في مقدرته كجدلى ، فاذا رأى في معارضه أى سخف أو زيف انتهزه في لمح البصر ، واستفله في صورة تزيد من انصاره وبشكل يدعو الى اقناع مؤيديه . وفي بداية الحرب العالمية الاولى أصدر كتابه « التعقل فيما يتعلق بالحرب » (٢) وعلى الرغم من أنه لم يكتب كواحد من انصار السلام الا أنه اسخط معظم الوطنيين عليه برفضه موافقة الحكومة وقرارها على اللهجة الاخلاقية العالية المناقفة التي تبنتها . لقد كان شو جديرا بالثناء في مثل هذه الاحوال حتى وقع فريسة مDAHنة الحكومة السوفيتية واطرائها المتملق له . فقد فقد كل قدرته على النقد وعلى كشف النقاب عن الزيف الوافد من موسكو ، ومع أنه كان ممتازا في الجدل الا أنه لم يرق الى مستواه الجدلى في عرضه لارائه الخاصة التي كانت مشوشة الى حد ما حتى السنوات الاخيرة من حياته التي أقر فيها الماركسية النظامية

(١) Erewhon وهي قصة كتبها صامويل بتلر

(٢) Common Sense about the war

وكان شو يتسم بصفات عديدة تستحق الاعجاب العظيم فقد كان جسورا لا يهاب شيئا على الاطلاق ، كما كان يعبر عن ارائه في قوة ، سواء كانت هذه الاراء تروق عامة الناس ام تسوؤهم ، وكان لا يرحم في هجومه على الذين لا يستحقون الرحمة ولكنه كان في بعض الاحيان لا يرحم ايضا هؤلاء الذين لا يستحقون ان يكونوا ضحاياهم . وباختصار يستطيع المرء ان يقول انه احسن كثيرا وان يكن قد أساء بعض الاساءة ، لقد كان مدهشا كمحطم للاوثان ولكنه كان ، كأيقونة تعبد ، اقل مكانة ببعض الشيء .

(٤) ألفريد نورث هويتهد Alfred North White head

بدأت صلتى بهويتهد أو بوالده بتعبير أصبح فى عام ١٨٧٧ • فقد قيل لى ان الارض كروية ولكنى رفضت ان اصدق هذا لثقتى فى مساوهد الحواس . واستدعى قسيس الابرشية ، الذى تصادف أن كان والد هويتهد ، لاقناعى . وسعت السلطات الكنسية جاهدة لكى تحملنى على التفكير فى أهمية الاختبار التجريبي فبدأت احفر حفرة آملا ان اخرج منها الى الجهة المقابلة فى سطح الكرة الارضية • وعندما أخبرونى أنه ذلك لا يجدى فى شيء ، بدأت شكوكى تتجدد .

وانفطعت صلتى بهويتهد حتى عام ١٨٩٠ عندما حضرت ، كطالب جامعى مستجد محاضراته فى الاستاتيكا • وطلب هويتهد من الفصل استذكار المادة ٣٥ فى الكتاب المقرر . وعندئذ التفت الى وقال : «لست بحاجة الى استذكارها لانك تعرفها أصلا » ، فقد سبق أن اقتطفتها برقمها فى امتحان المنحة الدراسية قبل ذلك بعشرة أشهر . ولمس شفاف قلبى بذكره هذه الحقيقة • ولم ينته عطفه عند هذا الحد فقد طلب الى الطلبة الاذكياء أن يسعوا الى التعرف بى ، لدرجة أننى تعرفت بهم جميعا فى خلال أسبوع واحد ، وأصبح الكثيرون منهم أصدقاء العمر •

وفى خلال انتقالى التدرجى من طالب الى كاتب مستقل ، استفدت من ارشاد هويتهد . وكانت نقطة التحول رسالة الزمالة التى كتبتها فى ١٨٩٥ . وعندما ذهبت لاراه قبل اعلان النتيجة بيوم واحد ، انتقد عملى تقدا قاسيا بعض الشيء ، وان كان على حق تماما فى نقده . وأصابتنى خيبة أمل شديدة وقررت ان أرحل عن كامبريدج دون انتظار اعلان النتيجة فى اليوم التالى . (وغرت رايى على كل حال ، عندما تناول جيمس وارد James Ward رسالتى بالمدح والثناء) . وعندما بلغنى أنه قد تم اختيارى زميلا أنحت عليه زوجته باللائمة لقسوته على فى النقد - ولكنه دافع عن نفسه قائلا لقد كانت تلك آخر مرة يخاطبني فيها كتلميذ . وعندما بدأت أكون فى عام ١٩٠٠ آراء مستقلة - كان من حسن طالعى أننى استطعت اقناعه بأنها لا تخلو من الفائدة . وكان هذا أساسا لعملنا المشترك الذى استغرق عشر سنوات فى وضع كتاب ضخم (١) ليس لاي منا الفضل الكامل فى تأليف أى جزء منه .

وفى انجلترا كان هويتهد يعتبر عالما رياضيا فحسب ، وترك الامر لامريكا لتكتشفه كفيلسوف وكتناحن الاثنين على خلاف فى آرائنا الفلسفية لدرجة أن العمل المشترك بيننا لم يعد ممكنا . وبعد أن ذهب الى امريكا

كان طبيعيا الا اراه الا نادرا . وبدأت هوة الخلاف بيننا تتسع في اثناء الحرب العالمية الاولى فقد كان يختلف معى احتلافا كليا حول دعوتي الى السلام . ولكنه كان اكثر تسامحا منى فيما يتعلق بخلافاتنا في هذا الموضوع .

وكنت ملوما اكثر منه - على الفتر الذى اعترى علاقات الود والصداقة التى كانت تربطنا نتيجة لهذه الخلافات .

وفي الشهور الاخيرة من الحرب قتل ابنه الاصغر فور بلوغه الثامنة عشرة . وسبب له هذا الما مروعا . ولم يتمكن من الاستمرار في عمله الا بمجهود هائل ينطوى على ترويض النفس . وكان للالم الذى احس به لهذه الكارثة علاقة وثيقة بتوجيه افكاره شطر الفلسفة وبالسبب الذى حدا به الى البحث عن وسائل للهرب من الايمان بكون ميكانيكى لا غير . وكانت فلسفته غامضة للغاية كما كان فيها الكثير مما لم انجح في فهمه قط . وقد كان يبدى دائما ميلا نحو « كانت » الذى لم احسن الظن به - وعندما بدا في تكوين فلسفة مستقلة خاصة به كان واقعا تحت تأثير برجسون البالغ . وكان شديد التأثر بنظرية وحدة الوجود ، ويعتقد انه عن طريق هذه الوحدة فقط يمكن للاستدلالات العلمية أن تجد لها مبررا . أما مزاجى فقد قادنى الى الاتجاه المضاد وانى اشك اذا كان العقل الصرف يستطيع أن يقرر من منا كان أقرب الى الصواب من الآخر . وقد يقول أولئك الذين يفضلون نظرنه الفلسفية انه يرمى الى ادخال العزاء في نفوس العاديين من البشر في حين اهدف انا الى ادخال القلق في نفوس الفلاسفة . وقد يرد من يفضل نظرنى بأنه بينما هو يدخل السرور على الفلاسفة اقوم انا بتسليّة العاديين من الناس . ومهما يكن الحال فقد افترقت سبلنا رغم بقاء الود بيننا حتى النهاية .

كان هو يتهد رجلا متعدد الاهتمامات بشكل غير عادى، وكان يدهلنى بمعرفته للتاريخ . واكتشفت ذات مرة بطريق المصادفة انه يقرأ كتاب ناولوسارى « تاريخ مجمع ترنت » (١) وهو عمل جاد للغاية ويندر العثور عليه - ويطالع فيه قبل أن يهجع للنوم . وكلمة عرضت موضوعات تاريخية استطاع دائما أن يدل ببعض الحقائق التى تلقى ضوءا عليها كالعلاقة متلا بين آراء بيرك السياسية ومصالحه فى حى بيوتات الاموال فى لندن The City والعلاقة بين هرطقة جون هوس (٢) واتباعه وبين مناجم الفضة فى بوهيميا . ولم يذكر أى انسان هذا أمامى قط حتى بضعة أعوام خلت عندما أرسل الى بحث ثقة

Paolo Sarpi «History of the council of Trent»

(١)

John Huss مصلح اجتماعى فى بوهيميا اتهم بالهرطقة تطورت

(٢)

دعونه الى حركة قومية ضد ألمانيا والبابا فى القرن الخامس عشر .

في هذا الموضوع . ولم يكن لدى فكرة عن المصادر التي كان هويته قد استند اليها في استيقاء معلوماته . ولكنني علمت أخيرا من مستر جون كينير بيل John Kennair Peel أنه من المحتمل أن يكون هويته قد استقى معلوماته من كتاب الكونت لتزو « بوهيميا : وصف تاريخي اجمالي » وكان هويته يتسم بالدعابة الممتعة والرقعة العظيمة . وعندما كنت طالبا في الجامعة كان الطلبة يلقبونه في تهكم « بالملك شاروبيم » وهي تسمية يرى من عرفوه في حياته فيما بعد انها تنطوي على عدم الاحترام اللائق به وان كانت تناسبه حينذاك . وتنحدر عائلته من مقاطعة كنت وانصرف اعضاؤها الى الاشتغال كقساوسة منذ الوقت الذي وطأت فيه قدم القديس أوغسطين أرض هذه المقاطعة على وجه التقريب . وفي كتاب اللوسين بريس Lucien Price يسجل فيه محاوراته في أمريكا يصف هويته انتشار التهريب في جزيرة ثانيت Isle of Thanet في مطلع القرن التاسع عشر حين جرت العادة على اخفاء البراندي والخمر في اقبية الكنيسة بموافقة القسيس . ويضيف هويته معلقا « وفي أكثر من مرة كانت جماعة المصلين تؤجل الصلاة حتى تخفى الخمر عن الانظار يساعدها في ذلك القسيس نفسه ، عندما توافيها الاخبار وهي تنشغل بالقداس بقدم الضباط المداهمين من بعيد على الطريق . وهذا دليل على مقدار الصلة الوثيقة التي تربط كنيسة إنجلترا بحياة الامة » . وقد هاجر جده اليها من جزيرة شيبى Isle of Sheppy

وانه مما يثلج صدري انني قابلته لأول مرة في جزيرة ثانيت لان لتلك المنطقة مكانة أقرب بكثير الى شغاف قلبه من كامبريدج نفسها . وأحسست انه ينبغي تسمية كتاب لوسين بريس بـ « هويته في بارتيبوس Partibus وبارتيبوس لاتعنى كل شيء خارج إنجلترا بل كل شيء خارج جزيرة ثانيت .

وكان من عادته ان يروى في تسلية وسرور ان جدى الذى كان يزوجه كثيرا انتشار الكاثوليكية الرومانية استحلف اخت هويته الا تهجر كنيسة إنجلترا . ومبعث تسليته ان ذلك الامر كان بعيد الاحتمال للغاية وكانت آراء هويته في اللاهوت تفابير اللاهوت الاصيل السائد . ولكن شيئا من جو الابرشية استمر في اساليب مشاعره وظهر فيما بعد في كتاباته الفلسفية .

كان هويته رجلا متواضعا للغاية . واقصى ما وصل اليه من فخار هو محاولته الاكيدة الاعتراف بالصفات التي تعيبه . ولم يسئله أبدا ان يروى قصصا عن نفسه تتضمن عيوبه فقد كانت هناك في كامبريدج سيدتان شقيقتان متقدمتان في السن كان مسلكهما يوحى بأنهما قد خرجتا لتوهما من شخصيات رواية « كرانفورد » ولكنهما كانتا في حقيقة الامر تقدميتين بل جريئتين فيما ذهبتا اليه من آراء

وكانتا تتصدران كل حركة للإصلاح . واعتاد هويته أن يروى وهو حزين بعض الشيء كيف أن مظهرهما الخارجى خدعه عندما قابلهما لأول مرة وظن أنه من دواعى تسليته أن يصدمهما قليلا ولكنه عندما عرض رأيا طفيفا فى ثوريته قالتا : - « أوه يا مستر هويته أنه ليسرنا عظيم السرور أن نسمع منك هذا الراى » - بطريقة اوضحت انهما كأنتا تنظران اليه حتى ذلك الحين على أنه ركيزة من ركائز الرجعية .

وكانت قدرته على التركيز فى عمله غير عادية للغاية . وذات يوم قانظ من أيام الصيف عندما كنت أمكث معه فى جراتنر وصل صديقنا كرومتون ديفز Crompton Davies فراققتنه الى الحديقة لتحية مضيفه . كان هويته منكبا على حل الرياضيات فوقفنا أمامه على مسافة لاتزيد عن ياردة . وراقبناه وهو يملا الصفحة تلو الصفحة بالرموز . ولم يرنا مطلقا - وبعد وقت انصرفنا وفى نفوسنا احساس بالرهبة .

ويدرك الدين عرفوا هويته عن كذب جوانب متعددة فيه لم تظهر فى العلاقات السطحية الموقوتة . فقد بدا من الناحية الاجتماعية عطوفا وعقليا لايعرف التأثير الى قلبه سيلا أما فى حقيقة الامر فقد كان الشخص الذى يتأثر - ولم يكن بكل تأكيد ذلك الوحش غير الانسان ، « الرجل العقلى » وكان اخلاصه لزوجته وأطفاله عميقا متأججا ، كما كان شديد الادراك فى كل وقت من الأوقات لاهمية الدين وفى شبابه كاد أن يتحول الى الكاثوليكية الرومانية عن طريق تأثير الكاردينال نيومان فيه .

وأمدته فلسفته فيما بعد ببعض ماكان يصبو اليه من الدين . وكان يناجى نفسه نجوى حزينة - مثله فى ذلك مثل الآخرين الذين يعيشون حياة شديدة الخضوع للنظام . وعندما كان يفكر فى وحدته كان يتفوه بالفاظ السباب يوجهها الى نفسه باعتبارها مسئولة عن عيوبه التى يتصور وجودها . وكانت أولى سنوات زواجه ملبدة بسحب المضايقات المالية وعلى الرغم من انه وجد صعوبات شديدة فى تحملها الا أنه لم يسمح لها أن تبعده عن عمله الذى كان هاما وان لم يكن مجزيا .

وكانت تتوفر له قدرات عملية لم تجد لها مجالا كبيرا فى الوقت الذى كنت أعرفه فيه معرفة وتبقة كما كان على درجة مذهلة من الذكاء مما مكنه من شق طريقه بين أعمال اللجان بطريقة ادهشت أولئك الذين يعتقدون انه نظرى تماما ولا يعرف شيئا من أمور الدنيا . وكان من الممكن أن يصبح اداريا كفتا لولا عدم مقدرته على الرد على الرسائل .

وذات مرة كتبت اليه رسالة أسأله عن مسألة رياضية كنت فى حاجة الى اجابة عنها على عجل لاضمنها مقالا كنت اكتبه ضد بوانكاري . ولم يرد على خطابى فكتبت اليه مرة أخرى . ومع ذلك لم اثلق منه ردا فلما

لم يجب أبرقت اليه وعندما استمر في التزام الصمت ارسلت اليه برقية خالصة الرد ولكنه تحتم على في نهاية الامر أن أسافر اليه في برود ستيرز لكي أظفر منه بالاجابة واعتاد أصدقاءه على هذا المسلك الشاذ بالتدريج . وعندما كان أى منهم يرد اليه رسالة فيما ندر يجتمع بفية أصدقائه لتهنئته . وكان يبرر تصرفه بقوله انه اذا قام بالرد على الرسائل فلن يتوفر لديه وقت للعمل المبتكر . وأظن أن هذا التبرير صحيح ولا سبيل للرد عليه .

وكان هو يتهمد مدرسا كاملا فهو يهتم اهتماما تحصيا بكل من كان عليه أن يتعامل معهم ويتعرف على نقاط القوة والضعف فيهم وكان يستخلص من أى تلميذ له احسن ما يقدر هذا التلميذ على القيام به . ولم يكن يلجأ الى الكبت او السخرية او التعالى او غيرها من الصفات التى يحلو لصغار المدرسين أن يلجأوا اليها . واعتقد أنه نفت روحه فى كل الشباب القادر الكفاء الذى ربطته به صلة كما نفت فى حيا صادقا باقيا .

(٥) جوزيف كونراد Joseph Conrad

تعرفت بجوزيف كونراد في سبتمبر عام ١٩١٣ عن طريق صديقتنا المشتركة الليدى اتولين موريل Attoline Morrell . وقد كنت لعدة سنوات معجبا بكتبه . ولكنى لم أكن أجرؤ على التعرف به دون ان يقدمنى احد اليه . وسافرت لمقابلته في بيته بالقرب من اشفورد Ashford في كنت Kent وانا في لهفة بعض الشيء . وكان اول انطباع بركه في نفسى هو الدهشة ، فقد كان يتكلم الانجليزية في لكنة اجنبية واضحة للغاية ، ولم يكن هناك في مسلكه ما يوحى باثر البحر بأى حال من الاحوال . كان سيدا مهذبا بولنديا ارستقراطيا حتى اطراف لصابعه . وكان شعوره نحو البحر ونحو انجلترا شعور الحب الرومانسي الحالم - ولكنه حب على درجة من البعد تكفى لان تترك الرومانسية الحالة دون ان تتسخ او تشوبها شائبة . وبدأ حبه للبحر يظهر في سن مبكرة جدا . وعندما أخبر والديه أنه يرغب في أن يصبح بحارا ، حثه ابواه على أن يلتحق بالبحرية النمساوية ، ولكنه كان يتوق الى المغامرة والبحار الاستوائية والانهار الغريبة التى تحيط بها الغابات السوداء . ولم توفر له البحرية النمساوية مجالا لارضاء هذه الرغبات . وهال العائلة أن يبحث عن عمل له فى البحرية التجارية الانجليزية وحاولت اثناءه عن عزمه ولكن قناته لم تلتن .

وكان - كما قد يرى أى انسان من كتبه - اخلاقيا متشددا للغاية ، وابتعد مايكون من الناحية السياسية عن العطف على الثورات . وكنا - هو وأنا - فى اغلب آرائنا أبعد مانكون عن الاتفاق ، ولكننا كنا متفقين بشكل غريب على شىء اساسى جدا .

كانت علاقتى بجوزيف كونراد تغاير اية علاقة لى تربطنى بأى انسان آخر ولم اكن اراه الا لاما ، ولفترة من الاعوام لم تطل . كنا فى الاعمال الخارجية من حياتنا نكاد نكون غرباء ، ولكننا كنا نتقاسم نظرة معينة للحياة الانسانية وللمصير البشرى ، نظرة ربطتنا منذ البداية بوشائج متينة للغاية . وقد يجوز أن يغفر لى اقتطاف عبسارة وردت فى خطاب كتبه لى بمجرد أن تم تعارفنا وينبغى على أن أشعر بأن التواضع يمنعنى من اقتطاف هذه العبارة لولا انها تعبر تماما عما كنت احس به نحوه . وكان ماعبر عنه يطابق ماكنت اشعر به ، قال :

« اننى أحمل لك حبا عميقا ينطوى على الاعجاب ، سيظل - حتى اذا لم ترنى أبدا مرة أخرى ونسيت وجودى غدا - لايتغير وملكا لك حتى النهاية » .

وكنت احمل الاعجاب لقصته العظيمة المروعة المسماة « قلب

الظلام » (١) اعجابا يعوق اعجابى بأى عمل آخر له ، ففيها نرى انسانا مثاليا ضعيفا بعض الشيء ينساق نحو الجنون لبشاعة الغابة الاستوائية والفربة بين المتوحشين . وتعبر هذه القصة فيما أظن تعبيرا تاما عن فلسفته فى الحياة . وشعرت - رغم اننى لا أعرف اذا كانت مثل هذه الصورة ستجد صدق فى نفسه أم لا - أنه ينظر الى الحياة الانسانية المتحضرة ، والمحتملة من الناحية الاخلاقية ، نظرتة الى المشى المحفوف بالمخاطر فوق طبقة رقيقة من الحمم البركانية التى بردت بصورة طفيفة ، والتى يمكن أن تقذف حممها فى أية لحظة وتجرف أمامها من لا يتنبه لها ، وتقوص به فى أعماق نارية ملتهبة . وكان شديد الإدراك للصور المختلفة التى يتخذها جنون العواطف المشبوبة التى يتعرض لها الانسان ، وكان هذا بالذات ما جعله يؤمن ايمانا عميقا بأهمية النظام . وربما يجوز للمرء أن يقول أن وجهة نظره كانت على تقيض ما يراه روسو من أن « الانسان يولد مكبلا بالاغلال ، ولكنه يستطيع أن يصبح حرا » . وأنا أعتقد أن كونراد يرى فى هذا المجال أن الانسان يصبح حرا لا باطلاق العنان لتواضعه ، ولا بانعدام السيطرة والاهتمام ، ولكن باخضاع البواعث المنحرفة من اجل غرض مسيطر .

ولم يكن يولى النظم السياسية كثيرا من الاهتمام رغم انه كانت لديه بعض المشاعر السياسية القوية . وكان أقوى هذه المتاعر هو جبه لانجلترا وكراهيته لروسيا اللذان عبر عنهما فى « العميل السرى » (٢) وقد عبر عن كراهيته لكل من روسيا القيصرية والشيوعية بقوة عظيمة فى « تحت العيون الغربية » (٣) وكانت كراهيته لروسيا من ذلك النوع التقليدى السائد فى بولندا . وبلغت هذه الكراهية الحد الذى منعه من أن يعترف بفضل لاي من تولستوى او دستيوفسكى . وقد قال لى ذات مرة أن تورجنييف هو الروائى الروسى الوحيد الذى يكن له الاعجاب .

وفيما عدا جبه لانجلترا او كراهيته لروسيا ، لم يكن يحفل بالسياسة كثيرا . فقد كان مهتما بالروح الانسانية الفردة وهى تجايبه عدم اكتراث الطبيعة وتجايبه غالبا عداوة الانسان كما تتعرض للصراعات الداخلية مع الاهواء ، الخير منها أو السوء ، التى تقود نحو الدمار . وكانت مأسى الوحشية والوحدة تشغل جانباً كبيراً من فكره وشعوره ومن أكثر قصصه تمثيلا لاتجاهاته قصة « اعصار الصين » (٤) ففي هذه القصة يقود القبطان - وهو انسان بسيط - سفينته حتى يخلصها

The Heart of Darkness	(١)
The Secret Agent	(٢)
Under Western Eyes	(٣)
Typhoon	(٤)

من برائن العاصفة في شجاعة لا تتزعزع واصرار متجههم . وعندما تنتهي العاصفة يكتب خطابا طويلا لزوجته ينبئها فيه بالعاصفة وفي سرده لما حدث يروي الدور الذي لعبه على أنه دور بسيط للغاية لا يعدو مجرد انجار واجبه كقبطان ، كما يتوقع أي انسان بطبيعة الحال . ولكن القارئ يدرك من تنابها روايته كل ما قام به ، وكل ما جسر على عمله ، وكل ما قاساه وتحمله . وقبل أن يبعث بالخطاب ، يطلق خادمه في السفينة عليه ولكن الخطاب يظل الى الأبد لا يقرؤه أحد على الإطلاق لأن زوجته تجده مملا يبعث على السأم فتقذف به بعيدا دون أن تطلع عليه .

والشيئان اللذان يبدو أنهما يشغلان كونراد أكثر من أي أمر آخر ، هما الوحدة والخوف مما هو غريب . فقصته «منبوذ الجزر» (١) تشبه « قلب الظلام » في كونها تعالج الخوف مما هو غريب . وكلا الوحدة والخوف مما هو غريب يظهران في القصة المسماة «أمي فوستر» (٢) التي تؤثر في النفس تأثيرا غير عادي . وفي هذه القصة نرى فلاحا سلافيا من الجنوب في طريقه الى أمريكا هو الوحيد الذي يبقى على قيد الحياة بعد تحطيم سفينته ، وتقذف به لبعج الموج الى قرية في كنت (٣) وتخشاها كل القرية وتسيء معاملته فيما عدا « أمي فوستر » وهي فتاة قبيحة غبية تحضر له الخبز وهو يتضور جوعا ثم تتزوجه في النهاية . ولكن الفزع مما هو غريب يستولي عليها أيضا عندما يعود زوجها الذي تشتد الحمى به الى لفة أهل بلده ، وتنتزع طفلها ، وتهجر زوجها ميموت وحيدا دون أهل . لكم عجبت في بعض الأحيان لمقدار ما كان كونراد نفسه يشعر به وهو يعيش بين الانجليز من وحنة يحس بها هذا الرجل والتي كان يكتبها بجهد ارادي صارم .

كانت وجهة نظر كونراد أبعد ما تكون عن أن تتصف بالعصرية . فهناك في العالم الحديث فلسفتان احدهما ، تنحدر من روسو وهي تضع النظام جانبا على أنه غير ضروري . والاخرى تجد اكمل تعبير لها في النظم التوتالية (الديكتاتورية) وتؤمن بأنه لا بد من فرض النظام بالضرورة من الخارج . اما كونراد فيتمسك بالتقليد الأكثر قدما ونحوه أن النظام ينبغي أن ينبع من الداخل . وهو يحتقر انعدام النظام كما يكره النظام الذي يفرض من الخارج لا أكثر .

والفيت نفسي في كل هذا متفقا اتفاقا وثبقا معه . وعندما التقينا لأول مرة دار الحديث بيننا في ألفة ومودة تزايدتا بصورة مستمرة . . . وبدا أننا نفوض : سويا خلال طبقة بعد طبقة من السطحيات حتى وصلنا بالتدريج الى « النار المركزية » . وكانت تجربة لا تدانيها أية تجربة

An Outcast of the Islands

(١)

Amy Foster

(٢)

(٣) تقع على السواحل الجنوبي الشرقي من إنجلترا

أخرى كابديتها . والتقت عيوننا وتبادلنا النظرات ونحن أنصاف مرتاعين وأنصاف سكارى عندما وجدنا أنفسنا معا في مثل هذه المنطقة ، كانت العاطفة التي كابديتها متأججة كعاطفة الحب المشبوب كما كانت في نفس الوقت تشتمل على كل شيء في طياتها وخرجت من عنده وأنا مذهول لا أكاد أستطيع أن أجد طريقى بين شئون الحياة العادية ومجرياتها .

ولم ار كونراد ابان الحرب او بعدها حتى عودتى من الصين في عام ١٩٢١ وعندما انجبت طفلى الاول في هذا العام ، رغبت أن يكون كونراد اباه في العماد على قدر المستطاع دون اتمام المراسيم الرسمية . وكتبت الى كونراد أقول « اننى أود بعد استئذانك أن أسمى ابنى جون كوبراد . لقد كان أبى يسمى جون وكذلك جدى . وكذلك جدى الكبير . وكونراد اسم أرى الافضال والمزايا تتمثل فيه » . وقبل هذا الوضع وقدم لابنى في حينه الكأس المتبع تقديمها في مثل هذه المناسبات .

ولم اره فيما بعد الا قليلا لاننى كنت اعيش معظم العام في كورنوال ، وكانت صحته في تدهور . ولكنى تسلمت منه بعض الرسائل الساحرة اذكر منها على وجه التخصيص خطابا عن كتابى عن الصين كتب فيه يقول : « لقد كنت دائما احب الصينيين ، حتى هؤلاء الذين حاولوا قتلى (مع بعض الناس الآخرين) في فناء منزل خاص في تشانغين حتى الشخص (وان كنت لا احمل له كبير الحب) الذى سرق كل ما املك من مال ذات ليلة في بانكوك ولكنه قام بتفريش ملابسى ، وطواها في عناية ونظام حتى ارتديها في الصباح ، قبل أن يختفى في أعماق سيام . وقد اولانى صينيون مختلفون حبهم وعطفهم الكثير وبالإضافة الى امسية قضيتها في تبادل الحديث مع سكرتير صاحب السعادة نسنج في شرفة فندق ، ودراسة قصيدة شعر بعنوان « الصينيون عبدة الاوثان » دراسة غير جادة او مكتررة ، فهذا كل ما اعرفه عن الصينيين . ولكن بعد قراءة رأيك الممتع للغاية فيما يتعلق بالمشكلة الصينية انظر نظرة ملؤها التشاؤم الى مستقبل بلدهم » . ومضى يقول ان آرائى عن مستقبل الصين « تبعث القشعريرة في روح الانسان وخاصة لأنى على حد قواه وضعت آمالى في الاشتراكية الدولية » . وقال معلقا : « هذا النوع من الاشياء الذى لا أستطيع ان افهم له معنى محمدا . اننى لم اتمكن ابدا من ان اجد في كتاب لآى انسان او في حديث لآى انسان أى شيء مقنع بالدرجة الكافية ينهض للحظة واحدة في وجه احساسى المستقر في أعماقى بالقدر الحزين الذى يحكم هذا العالم الذى يسكنه الانسان » . واستمر في قوله انه رغم ان الانسان قد تعلم أن يطير الا انه لا يطير كما تطير النسور بل يطير كما تطير الخنافس « ولا بد أنك قد لاحظت كيف ان طيران الخنافس قبيح ومضحك وأخرق » . وشعرت أنه في هذه التعليقات المتشائمة يظهر حكمة أعمق مما أظهرت

في آمالي الزائفه بعض الشيء في حل سعيد للصين . ويجب القول بان
الحوادث قد اثبتت صحة قوله حتى الآن .

وكان هذا الخطاب آخر اتصال لي به فلم اره ابدا بعد ذلك
لاحدث اليه وفي مرة رايتة عبر الطريق وهو منهمك في حديث مع رجل
لا اعرفه وهو واقف خارج باب المنزل الذي كان بيت جدتي في يوم من
الايام ، والذي تحول بعد وفاتها الى ناد للفنون . ولم أشأ أن أقاطع
ما بدا حدينا جادا فانصرفت . وعندما مات بعد ذلك بوقت قصير
اسفت على اننى لم اكن اكثر جراءة . اما المنزل فقد دمره هتلر وزال من
الوجود . واني أرجح أن كونراد يطويه النسيان . ولكن نبيله المتأجج
الشديد يسطع في ذاكرتي كأنه نجم يراه الرائي من أعماق بئر . واود أن
استطيع أن أجعل ضياءه تستطع للآخرين مثلما سطعت لي .

قابلت سنطيانا لأول مرة في «نمبل روف جاردن» ذات اسمية دافئة من أمسيات يونيو عام ١٨٩٣ ، وبعد يوم قائل يتصعب فيه العرق أصبحت درجة الحرارة لذينة ممتعة كما غدا منظر لندن فاتنا ، كنت قد انتهيت من البحث الرياضى المقدم لجامعة كامبريدج بعد عشرة أعوام من العمل المضنى الشاق وكنت على وشك أن أشرع فى دراسة الفلسفة . وأخبرنى أخى الذى عرفت سنطيانا عن طريقه انه فيلسوف ، ولذلك نظرت اليه فى اجلال عظيم زاد من شأنه أننى كنت أحس بالتححرر والانطلاق . وكانت له حين ذاك عينان واسعتان لامعتان على قسط وافر من الجمال . وأنصت اليه باحترام لأنه بدا لى كما لو كان تجسيدا لمركب صعب - أعنى الجمع بين أمريكا وأسبانيا . وأنا لا أستطيع أن أذكر على أية حال - أى شيء من الحديث الذى دار بيننا فى تلك المناسبة .

وحين بونعت معرفتى به وجدت أن علاقتنا يربطها شيء من التعاطف وإن كان الكثير من أوجه الخلاف يشوبها . وكان يزعم لنفسه شيئا من الموضوعية التى لم تكن مخصصة تماما . ورغم أن والديه كانا أسبانيين إلا أنه شب وتربى فى بوسطن وبأثر التدريس فى جامعة هارفارد . ومع ذلك - فقد كان دائب الشعور بأنه منفى من أسبانيا . وعندما اندلعت السنة الحرب الاسبانية الأمريكية وجد نفسه شديدة التحمس للجانب الاسباني . وقد لا يكون فى هذا ما يدعو الى الدهشة لأن والده كان حاكما لمانيلا . وكانت مظاهر الموضوعية وعدم التحيز التى اعتاد أن يبدو عليها تختفى كلما كان الأمر يتعلق بوطنيته الاسبانية . وكان من عادته أن يقضى الصيف فى منزل أخته فى مدينة أفيلا القديمة - وذات مرة وصف لى كيف أن السيدات هناك يجلسن بجوار نوافذهن يغازلن معسارفهن من الذكور وهم يمرون عليهن ثم يكفرن بعد ذلك عن هذا الأسلوب فى تزجية وقت الفراغ بالذهاب للاعتراف . ولما اندفعت معقبا على ذلك بقولى «يظهر أن هذه الحياة سقيمة ، مملة بعض الشيء - اعتدل وأجاب فى حدة «انهم يقضين حياتهن فى أعظم شيئين ؛ الحب والدين» .

وكان من الممكن له أن يبدى إعجابه بالاغريق والايطاليين فى العصر الحديث - وحتى بموسولينى . ولكنه لم يكن فى امكانه أن يشعر باحترام حقيقى نحو أى انسان يأتى من شمال جبال الألب - وكان فى رأيه أن شعوب البحر المتوسط وحدها هى القادرة على التأمل - ولذلك فهم وحدها القادرة على أن تخرج فلاسفة حقيقيين . وكان ينظر الى الفلسفات الألمانية والبريطانية على أنها محاولات عائرة لأجناس غير ناضجة - كما كان يروقه فى البلاد الشمالية الرياضيون البدنيون ورجال الأعمال . كان صديقا حميما لأخى الذى لم يسول له النزق والاندفاع بذل محاولات للولوج الى لغز الألفاظ الفلسفية . ولكن موقفه نحوى ونحو فلاسفة الشمال الآخرين بنم عن الاشفاق الرقيق لمحاولتنا الوصول الى شيء أعلى وأرفع من أن نرقى

اليه . ولم يسيء بحال من الأحوال الى علاقات الود التي كانت تربط
الواحد بنا بالآخر لأن شعورى الوطنى الاكيد كان على قدم المساواة مع
شعوره تماما .

كان سنتيانا فى حياته الخاصة شبيها جدا بما كان عليه فى كتبه
كان دمث الاخلاق شديد الرقة والعناية فيمايقوم به - كما دان من النادر
جدا أن تنور أعصابه . وقبل موقعة مارن Marne بأيام قلائل عندما
بدا استيلاء الألمان على باريس وشيك الوقوع - قال لى «أظن أنه يجب على
أن اذهب الى باريس لأن ملابسى الداخلية الشتوية موجودة هناك - وأنا
لا أحب أن تقع فى قبضة الألمان . وقد تركت هناك أيضا مخطوط كتاب
قضيت فى تأليفه العشرة الأعوام الماضية . ولكن هذا لا يهمنى كثيرا جدا»
ولكن موقعة مارن وفرت عليه على كل حال ضرورة القيام بهذه الرحلة .

وذكر لى ذات أمسية فى كامبريدج بعد انقضاء فترة كنت أراه فيها
كل يوم «أتنى سأذهب الى اشبيليه غدا . فأنا أرغب فى أن أكون فى مكان
لايكبت الناس فيه عواطفهم ، وفى ظتى أن هذا الموقف ليس من الغرابة فى
شئ لرجل يكبت عواطفه القليلة .

ويروى فى سيرة حياته التى كتبها عن نفسه عن إحدى المناسبات
التى استطاع فيها أخى أن يثير فيه قدرا من الانفعال والشعور الدافئ اذ
كان أخى يملك يختا دعا اليه سنتيانا ليصاحبه فيه . وكان اليخت راسيا فى
مكان موحل . ولم يكن هناك سبيل للوصول اليه الا عن طريق (سقالة)
ضيقة للغاية واستطاع أخى أن يعبرها فى يسر وخفة ولكن سنتيانا كان
يخشى أن يسقط فى الوحل . ومد أخى يده ليعاونه . ولكن لسوء الحظ
اختلف توازن سنتيانا لدرجة أن كليهما سقطا (بطرطشة) فى الوحل شبه
السائل على ضفة النهر . ويروى سنتيانا بشئ من الرعب أن أخى استعمل
فى هذا المقام الفاظا لم يكن ليتوقع من إيرل أن يعرفها .

وكان سنتيانا يبدو دائما على قدر من التألق بعض الشئ فقد كانت
ملابسه أنيقة على الدوام كما كان يلبس حتى فى أزقة الريف أحذية برقبة
ذات أزرار ، مصنوعة من الجلد اللامع . وأظن أن من الممكن لآى انسان
على قدر كاف من الذكاء أن يتكهن بهذه الصفات من ثنايا أسلوبه الادبى .

وعلى الرغم من أنه لم يكن كاتوليكييا مؤمنا الا أنه كان يعبد بشدة
الدين الكاتوليكيى بشتى الطرق السياسية والاجتماعية . ولم يكن يرى
هناك داعيا لأن تؤمن جماهير الناس بشئ حقيقى . فقد كان مايرغب فيه
هو أن تؤمن جماهير الناس بأسطورة ما- تستطيع أن تظفر برضاه وتحوّز
قبوله من الناحية الجمالية . ودعاه هذا الموقف بطبيعة الحال الى أن يكون
شديدا للبرستانتية كما جعل الناس الذين يميلون نحو البروستانتية
يتعرضون له بالنقد والهجوم . وأدان وليم جيمس رسالته للدكتوراه
ووصفها بأنها «الكمال فى العفن» . ورغم أن الرجلين اشتغلا سويا سنوات
كثيرة الا أن أحدهما لم ينجح أبدا فى أن يحسن الظن بالآخر .

ولم استطع أبدا من ناحيتى أن أعتبر سنتيانا فيلسوفا من وجهة

النظر الفنية رغم اعتقادي أنه افاد كنافد بإبداء وجهة نظر لم بعد الآن شائعة . والى حد ما أخفى الرداء الأمريكي الذي تدهرت به كتاباته ، طبيعة تفكيره الرجعي المتطرف . ولم يكتف كاسباني بأن يؤيد الكنيسة سياسيا في سائر المحاولات التي تبذلها لتدعيم التفاليد العتيقة في ذلك البلد - ولكنه كفيلسوف رجع الى حد كبير الى المدرسية السائدة في القرن الثالث عشر . ولم يعرض هذا المذهب بصراحة كما فعل أتباع القديس توماس الجدد - ولكنه أشار اليه تحت أسماء مختلفة - حتى يعمى على القارئ فلا يعرف المصادر التي نبع منها تفكيره . وليس من العدل القول بأن آراءه هي نفس آراء المدرسين في القرون الوسطى تماما - فقد أخذ من أفلاطون أكثر مما أخذ من القديس توماس . ولكني أظن أنه لو قدر له وللقديس توماس أن يلتقيا - لوجدا أنفسهما على اتفاق ونفاهم كبير للغاية .

وكتابه الرئيسيان في الفلسفة البحثة هما «حياة العقل» (١) الذي نشر في عام ١٩٠٥ و «مناطق الوجود» (٢) الذي نشر بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٤٠ . ويعالج سنتيانا حياة العقل تحت خمسة رؤوس موضوعات هي العقل في الذوق العام والادراك Common Sense - المجتمع الدين الفن - العلم وأنا شخصيا لا أرى أن مثل هذا الكتاب يستميل القارئ نحو هذا الضرب من الحياة التي يعتبره سنتيانا عقليا - فهو كتاب هادي أكثر مما ينبغي ينظر الى الأشياء نظرة استعراض لها ، كما أنه لا يفيض بالعاطفة ، العاطفة التي تبدو لي على أقل تقدير - رغم أنه قد يتعين إخضاعها والتحكم فيها - عنصرا جوهريا في أية حياة تستحق أن نحياها . وكتابه «مناطق الوجود» الذي كان آخر عمل فلسفي هام له - يتناول على التوالي موضوعات الجوهر والمادة والحقيقة والروح . وفي هذا الكتاب شأنه في ذلك شأن كتبه الفلسفية الأخرى لا يعنى سنتيانا بأن يسوق فيه الأدلة والبراهين ، والكثير مما يقول وخاصة فيما يتعلق بالجوهر يتجاهل الكثرة من الأبحاث التي يعتبرها معظم الفلاسفة المحدثين هامة ومرتبطة بالموضوع . فقد أغفل المنطق الحديث الذي ألقى ضوءا جديدا كاشفا على مشكلة الكليات القديمة Universals التي شغلت جانبا عظيما من اهتمام المدرسين . ويبدو أن كتاب سنتيانا «منطقة الجوهر» (٣) يفترض سلفا - بمعنى من المعاني على أية حال - حقيقة الكليات . أنه لمن النزق والتهور القول بأن مذهبه باطل ، ولكنها صفة من صفات سنتيانا أن يفترض في هدوء صحة هذا المذهب دون أن يعنى أو يابه بتقديم أية أدلة لاثباته .

وعلى الرغم من أنه قضى معظم حياته العاملة كأستاذ للفلسفة في هارفارد إلا أن أهميته من الناحية الأدبية تفوق أهميته من وجهة النظر الفلسفية . وفي رأبي أن أسلوبه في الكتابة لا يمثل تماما ما ينبغي أن يكون عليه الأسلوب . فأسلوبه مثل أحديثه الطويلة الرقبة ، المصنوعة من الجلد اللامع . . ناعم ومصقول أكثر مما ينبغي . والانطباع الذي تتركه قراءه

The Life of Reason	(١)
Realms of Being	(٢)
Realm of Essence	(٣)

كبيه في الإنسان هو الاحساس بأنه يسبح مع تيار نهر ينساب في عومه ورقة - نهر عريض جدا لدرجه أنك من اننادر أن ترى أيا من صفتيه . ولكن كلما لاح من وقت لآخر لسان أرض بارز في الماء أصبت بالدهشة لنصورك أن هذا البروز جديد دون أن تنتبه الى وجوده أصلا ، والسبب في ذلك عدم شعورك بحركة التيار التي تجرفك في طريقها . واني لاجد نفسي عند قراءة كتبه موافقا على كل جملة أطلعها بطريقة تشبه طريقة من يسير أثناء النوم . ولكني أعجز تماما بعد أن أفرغ من قراءة بضعة صفحات أن أذكر شيئا مما قرأت .

ورغم ذلك فاني مدين له بأفضال فلسفية معينة ، وفي شبابي كنت ألهي مع ج ١٠ . مور G.E. Moore في الاعتقاد بموضوعية الخير والشر . . ولكن نعد سننيانا الذي تضمنه كتابه «رياح المذهب» (١) كان السبب الذي دعاني لهجران هذا الرأي رغم أنني لم أفلح أبدا في أن أصل الى ماوصل اليه من ارتباح واستقرار .

كتب سننيانا في النقد الأدبي - وبعض ماكتب ممتاز . كان له كتاب اسمه «ثلاثة شعراء فلاسفة» (٢) تناول فيه لوكريشس ودانتي وجوته . وفد ساءه بعض الشيء أنني قلت ان معالجته للشاعرين الايطاليين تفوق معالجته للشاعر الألماني . وبدت لي كتابته عن جوته ضربا من اللف والدوران يتصارع فيه على الدوام رضاه الفكري عن جوته مع اشمئزازه التابع من مزاجه الخاص . واستهواني اشمئزازه أكثر مما استهواني رضاه - ووددت لو أنه أطلق لهذا الاشمئزاز العنوان .

وكان يحمل لانجلترا فدرا عظيما من الحب والمودة . ويستطيع أي سحس انجليزى وطنى أن يطالع كتابه «مناجيات في انجلترا» (٣) في لذة وحبور . وكب قصه مثل فيها أخى (الذى كان سانيانا يكن له ودا كبيرا) دور البطل - كما كتب سيرة حياته في أجزاء عديدة نرجع أهميتها أساسا الى تصوير الصراع الدائر بين مزاجه الاسباني والبيئة المحيطة به في بوسطن . وكان من عادته أن يزهر بأن أمه الأرملة التي تعيش في بوسطن كانت نشيع القلق في نفوس أصدقائها من أهل نيوانجلاند لعدم قيامها بعمل أي شيء بتشغلها على الاطلاق . وعندما جاء اليها هؤلاء الأصدقاء على هيئة وفد يستفسرون منها عن الطريقة التي كانت تصرف بها وقتها أجابت «اذن سأخبركم - في الصيف أحاول أن أوفر لنفسي جوا باردا وفي الشتاء أحاول أن أستمتع بالدفء» . وكان اعجابه بهذه الاجابة يمنعه من أن يشعر أنه مستريح بين أهله وذويه في نيوانجلاند .

وكتب كثيرا عن النقافة الأمريكية التي لم يكن يحسن الظن بها والقي خطابا في جامعة كاليفورنيا أسماه «التقليد المذهب في الفلسفة الأمريكية» (٤) فحواه أن الحياة الأكاديمية الأمريكية غريبة عن روح أمريكا

- | | |
|--|-----|
| Winds of Doctrine | (١) |
| Three Philosophical Poets | (٢) |
| Soliloquies in England | (٣) |
| The Genteel Tradition in American Philosophy | (٤) |

التي وصفتها بأنها قوية فتيه ولكنها مادية ، بجارية • وقد بدأ لي حلال
تجوال في الجامعات الأمريكية انما تصبح انتر ملاءمة واستجاما مع روح
هذه البلاد لو انها اتخذت ناطحات السحاب معرا لها بدلا من الابنية شبه
القوطية اسي يحيط برص الجامعة • وكانت هذه وجهه نظر سننينا أيضا
ولكنني كنت اشعر على أية حال بشيء من الخلاف بيننا وقد كان سننينا يجد
معناه في الابتعاد والنظر الى ماحوله نظرة ملؤها الاحتفار في حين أنني كنت
أجد أن هذا الموقف - عندما تضطرنني الظروف اليه - اليم للغاية • كان
الابتعاد والاحتقار السهل عييين فيه وبسببهما استحال شخصا من الصعب
لاسان ان يحمل نه الحب وان امدن أن يكن له الاعجاب •

ولكن العدن وحده يقتضى معارنه حكمي عليه بحكمه على - فهو يقول:
«وحى حين بدون بصيرة رسل أشد ماكون نفاذا - فان نعاذ رؤيته وحده
السبب في تركيز هذه البصيرة أكثر مما ينبغي • فهو يرى شيئا واحدا
في وقت واحد بجلاء غير عادى أو يرى جانباً واحداً من التاريخ أو السياسة
ولكن ادراكه الواضح الجلى لهذا العنصر يعصب عينيه فيمنعه من أن يرى
بقية العناصر ، وانه لمن الغرابة بمكان أن يوجه الى تهمة المحافظة الدينية
وسأترك المستمع لكى يصدر حكمه بنفسه في هذا الصدد •

ويبدو أن سننينا لم يشعر على الاطلاق أنه لو قدر له النجاح في نشر
مبدأ الولاء للماضى الذى يعتنقه لأدى هذا الى خلق عالم يدب فيه الموت -
لا يكتب لآى شيء طيب النماء فيه • ولو كان يعيش في زمن جاليليو لأوضح
هوان شأنه من الناحية الأدبية بالنسبة الى لوكرش • ولكن
لوكرشس كان يقدم للعالم مذهبا قديما تمتد جذوره الى عدة قرون • واني
اشك في أن أعمال ديموفريطس وأبيقور التي تضمنت هذا المذهب عندما
كان جديدا كانت تبعب على الرضا من الناحية الجمالية كما تبعبه قصيدة
لوكرشس وقد يكون من حظهما فقدان أعمالهما مما يجعل رأيي لا يعدو أن
يكون ضربا من الحدس والتخمين • والذي لا يحتمل الشك هو أن الجديد
لا يرقى أبدا في نضجه الى مرتبة القديم • ولذلك فان عبادة مبدأ النضج
لا تتمشى مع التفوق والامتياز الجديد • ولهذا السبب فان سننينا أديب أكثر
منه فيلسوف •

(٧) سيدنى وب وبياتريس Webb

كان سيدنى وب وزوجته بياتريس اللذان عرفتهما عن كثب لعدد من الاعوام وشارتهما السكن بعض الوقت ، اكثر زوجين اكتمالا وقربا والتصاقا قدر لى أن اخالطهما فى حياتى على الاطلاق . ولكنهما رغم ذلك كانا يكرهان النظر الى الحب أو الزواج بمنظار رومانس . فقد كانتا يعتبران الزواج تنظيمًا اجتماعيًا يهدف الى ملئمة الفريضة فى اطار قابونى وفى خلال السنوات العشر الأولى من زواجهما . كان من عادة مسز وب أن تقول بين حين وآخر : « الزواج - كما يقول سيدنى دائما سلة مهملات تلقى فيها العواطف » . وفى السنوات التالية حدث تغيير طفيف . فقد اعتادا بوجه عام أن يدعوا زوجين لقضاء عطلة نهاية الاسبوع معها ، وأن يخرججا بعد ظهر يوم الأحد للمشى التسيط يرافقى سيدنى أثناء السيدة ، وتصحب بياتريس السيد وعندما يصل سيدنى الى نقطة معينة أثناء المشى نجده يقول : أنتى أعلم تماما ما تقول بياتريس فى هذه اللحظة . انها تقول : « أن الزواج كما يذكر سيدنى دائما سلة مهملات العواطف » . ولا يعرف أحد على وجه اليقين اذا كان سيدنى قد فاه بهذه العبارة حقًا ام لا .

كنت أعرف سيدنى قبل زواجه . ولكنه كان حينذاك دون ما أصبح عليه بعد الزواج بكثير . وكان نعاون كل منهما مكملًا للآخر تمامًا . واعتدت ان أفكر - رغم ماقد يكون فى هذا من تبسيط للأمور يتنافى مع الواقع - انهما كانت نرحى اليه بالأفكار التى يعوم هو بنقلها الى أعمال . وربما كان سيدنى أكبر الرجال اجتهادًا ممن عرفتهم فى حياتى فعندما كانا يكتبان كتابًا عن الحكم المحلى ، كانا يبعثان منشورات دورية الى سائر موظفى الحكم المحلى فى طول البلاد وعرضها للاستفسار عن بعض النقاط ، ويوضحان للموظف المختص أنه يحق له قانونًا شراء كتابهما الوشيك الصدور من الأموال المخصصة للأغراض المحلية . وعندما قمت بتأجير منزل لهما ، كان ساعى البريد - وهو اشتراكى متحمس - فى حيرة من أمره لايعرف اذا كان القيام بخدمتهما شرفًا له أم مدعاة للبرم والضيق لما كانت تقتضيه هذه الخدمة من تسليم ألف رد يوميا على منشوراتهما . وقد بدأ وب حياته أصلا ككاتب من الدرجة الثانية فى الخدمة المدنية . ولكنه نجح عن طريق العمل الشاق الجبار أن يحصل على ترقية الى الدرجة الأولى . وكان رجلا جادا بعض الشيء ، لايجب المزاح فى الموضوعات التى يعتبرها مقدسة مثل النظريات اتسياسية . وفى احدى المناسبات قلت له ان للديموقراطية ميزة واحدة على الأقل تتلخص فى أن عضو البرلمان لايمكن أن يكون أكثر غباوة من ناخبه ، لأنه كلما ازدادت غباوته ، كان اختيار الناخبين له دليلًا على غباوة اكبر . فتضايق وب ضيقا شديدا وقال بطريقة لازعة : « هذا هو نوع المجادلات الذى لاجبه » .

كانت دائرة اهتمامات مسز وب اوسع من تلك التى كانت تستهوى

زوجها وكانت عميقة الندين دون أن سمي الى اى نوع من أنواع الدين المعروفة
بلاصالة والرسوخ Orthodoxy، غير انها كاشتراكية كانت تفضل
نيسة انجلترا Church of England لانها تنظيم من تنظيمات الدولة
كما كانت شديدة الاهتمام بالآدميين كأفراد دون أن يفتصر
اهتمامها على الأوقات التي يمكن أن يكونوا فيها ذوي فائدة ونفع فحسب وهي
واحدة من سبع أخوات هن بنات رجل عضامى اسمه بوتر Potter جمع
حل تروته عن طريق بناء الاكواخ للجيش التي حاربت في القرم . كان
بوتر من اتباع هربرت سبسر . وكانت مسز وب نتاجا ملحوظا لتطبيق
نظريات ذلك الفيلسوف في التربية . وانه لما يدعو للأسف أن أمي التي كانت
جارة لها في الريف ، وصفتها بأنها فراشه اجتماعية . ولكن يداعبنى
الرجاء في أن تغير أمي هذا الحكم لو أنها قد عرفت مسز وب فيما بعد . .
وعندما بدأت تهتم بالاشتراكية ، قررت أن تستعرض الغابيين وتختار من
بينهم ، فاستعرضت بوجه خاص الثلاثة الأكبر تعوقا وامنيآزا وهم : وب ،
وشو ، وجراهام ولاس Graham وكان اختيارها اشبه ما يكون
بحكم باريس وان كان الجنس في هذه الحالة معكوسا ، ووقع اختيارها على
سيدني على أنه نظير أفروديت (١) .

كان وب يعتمد اعتمادا تاما على كسب فوته في حين أن بياتريس
ورثت عن أبيها ثروة تكفل لها الرغد . وكان لبياتريس - على نقیض سيدني -
عقلية الطبقة الحاكمة وتفكيرها . وحين رأيا أن لديهما من المال ما يكفل
لهما العيش دون حاجة الى الكدح في سبيل الرزق ، قررا أن يقفا حياتهما
على الدراسة والبحث ، وفروع الدعاية الراقية . وأصابا في كلا هذين
المجالين نجاحا مذهلا . وتشيد كتبهما بما بذلاه من جهد مضن وعمل شاق
كما يشهد انشاء مدرسة الاقتصاد The School of Economics على مهارة
سيدني وحذقه . وأنا لاظن أن قدرات سيدني كانت ستؤتى نمازها على
هذا النحو لو لم يعضدها ثقة بياتريس بنفسها ، ومساندتها ، وسألتها
ذات مرة اذا كانت قد كابدت في حداتها، في أى وقت من حياتها ،
شعورا بالحجل أو الحياء فأجابت بقولها : آه . لا . كنت أقول لنفسي اذا
استشعرت في أى وقت من الأوقات جنوحى نحو الانكماش والجبن ، وأنا
أدلف الى حجرة مليئة بالناس ، أنت أذكى فرد في عائلة من أذكى العائلات
المنتجة الى أذكى طبقة في أذكى أمة في العالم . فماذا يفزعك أو يخيفك
اذن . . .

وآس أحمل لمسز وب الود والاعجاب رغم اختلافي معها في كثير من
الأمور ايممة جدا . كنت معجبا أولا وقبل كل شيء بقدراتها الهائلة الجبارة
كما كنت معجبا الى جانب ذلك بكمالها واستقامتها فقد كانت تعيش من
أجل أهداف عامة ، دون أن يجرفها الطموح الشخصى مطلقا - رغم أنها لم
نكن نخلو منه - عن هذه الأهداف وكنت أودها لأنها كانت صديقة دافئة

(١) يشير رسل هنا الى الأساطير الاغريقية . وفيها تتنازع ثلاث
ربات على لقب الهة الجمال ، فتحتكم الربات الثلاث الى باربس ليختار
واحدة من بينهن ويختار باريس من بينهن فينوس أو أفروديت . ويقول
رسل ان الجنس في حالة مسز وب معكوس لأنها هي التي قامت بعملية
الفرز والاختبار من بين سيدني وب ، وبرنارد شو ، وجراهام والاس .

عميقة على من تحمل لهم ودا خاصا . ولكنى كنت أختلف معها فى الدين والاستعمار ، وعبادة الدولة التى كانت جوهر الغابية . لقد أفضت هذه العبادة بعائلة وب ، وبشو أيضا الى ما اعتقدت أنه تسامح غير لائق نحو موسولينى وهتلر ، كما أنها أفضت فى نهاية الأمر الى الاطراء الزائف المضحك بعض الشيء للحكومة السوفيتية .

ولكن ليس للانسان جانب واحد فحسب لاينعداء . ولا تستثنى من ذلك عائلة وب نفسها . فقد أبدت ذات مرة ملاحظة لشو مفادها أن وب بدا لى أنه يفتقر بعض الشيء الى المشاعر الرحيمة . وأجابنى شو ولا . أنت مخطئ تماما . فقد كنت ذات مرة أستقل مع وب تراما فى هولندا . وكنا نأكل البسكوت من حقيبة نحملها معنا حين دخل عربة الترام مجرم يرسف فى الأغلال ، يقتاده رجال الشرطة . فابتعد عنه الركاب جميعا فى رعب وفزع . ولكن وب ذهب الى السجين وقدم له البسكوت ، . وانى أذكر هذه القصة كلما وجدت نفسى تجنح الى انتقاد أى من وب وشو بشكل لا يستحقانه .

وكان هناك أناس تحمل لهم عائلة وب الكراهية . فقد كانا يكرهانز ويلز لأن مسلكه كان يسئ الى أخلاق مسز وب الفيكتورية الصارمة ، ولأنه كان يسعى الى ازاحة وب عن عرش الجمعية الغابية التى كان يرأسها كما كانا يكرهان رامزى ماكدونالد Ramsay Mac Donald منذ بادئ الأمر : وكان أقل شيء عدائى سمعته عنه على الإطلاق من أى منهما عند تكوين أول حكومة عماليه . فقد قالت عنه مسز وب انه ليس زعيما لكنه بديل صالح لزعيم .

وكان تاريخهما السياسى غريبا بعض الشيء . وفى أول الامر كانا يعملان مع المحافظين لأن آرثر بالفور Arthur Balfour راق مسز وب بسبب استعداده لزيادة مخصصات مدارس الكنيسة من الخزانة العامة . وعندئذ سقطت حكومة المحافظين فى عام ١٩٠٦ بذل وب وزوجته جهدا طفيفا ، غير فعال للنعاون مع الأحرار . ولكن بدا لهما أنهما قد يرتاحان كاشتراكيين فى جو حزب العمال أكثر من ارتياحهما فى أى جو آخر . وفى السنوات الأخيرة من حياتهما ، أصبحا عضوين يدينان بالولاء لهذا الحزب .

واستمرت مسز وب تدمن الصيام لعدد من الأعوام لبواعث بعضها صحى ، وبعضها دينى . وكانت ترفض أن تتناول طعام الافطار ، ونكتفى بتناول عشاء خفيف للغاية . وكانت وجبتها الرئيسية الوحيدة هى الغداء وكثيرا ما كانت تدعو عددا من الناس الممتازين المشهورين لتناول طعام الغداء فى بيتها . ولكنها كانت تحس بالجوع الشديد لدرجة أنها كانت تسبق كل ضيوفا وتشرع فى الأكل بمجرد أن يعلن الخدم اعداد المائدة . وكانت تؤمن مع ذلك بأن التضور جوعا يزيد روحانية ، وأخبرتني ذات مرة أن التضور جوعا يجعلها تستمتع برؤيا بديعة . فأجبتها بقولى : نعم اذا أكلت أقل مما ينبغى فسترين رؤيا . واذا أفرطت فى الشراب فسترين ثعابين ، . وأخشى أن تكون قد اعتبرت هذه الملحوظة استخفافا أو استهتارا لا يفتقر ولم يشاركها وب الجانب الدينى من طبيعتها . ولكنه

لم يناصر شعورها الديني العداوة في قليل أو كثير وغم ما كاث يتسببه له هذا الشعور من مضايقات أحيانا . وعندما كنت أمكت معهم في فندق في نورماندى ، كان من عادتها أن تلزم حجرتها لأنها لم تكن تستطيع أن تتحمل منظرنا المؤلم ونحن نتناول الافطار . وكان سيدنى على كل حال يهبط الدرج لاضار أرغفة الخبز والقهوة . وفي أول صباح لها بالفندق، أرسلت مسز وب رسالة عن طريق الخادمة تقول فيها « ليست (لدينا) زبدة يفطر بها سيدنى . وكان استعمالها لكلمة « لدينا » الدالة على الجمع مصدرا لمتعة أصدقائها .

كان كلاهما لا يؤمنان بالديموقراطية أساسا ، ويعتبران أن منهمة السياسى تتركز اما فى خداع عامة الناس أو ارهابهم . وأدركت جندور مفهوم مسز وب عن الحكم عندما رددت أمامى وصف والدها لاجتماعات المساهمين . فالوظيفة المعترف بها لمديرى الشركات المساهمة فى هذه الاجتماعات هى وقف المساهمين عند حدهم ، وكانت فكرتها عن علاقة الحكومة بالناخبين شبيهة بهذا .

وكانت انقصص السى يرويها والدها عن حياته السبب فى أنها لم تشعر باحترام كبير نحو العظماء . فبعد أن أنم والدها بناء اكواح للمقر الشتوى للجيش الفرنسى فى القرم ، توجه الى باريس ليحصل على مستحقاه . ولما كان قد أنفق كل رأسماله تقريبا فى اقامة هذه الاكواح ، أصبح حصوله على مستحقاته أمرا هاما بالنسبة له . ولكن على الرغم من اعتراف كل واحد فى باريس بأحقية فى الدين ، فقد تعطل صدور الشيك وأخيرا قابل اللرد براسى Brassey الذى كان قد جاء فى مهمة شسبية بمهمته . وعندما شرح له الصعوبات التى نجابهه ضحك منه براسى وقال « يا زميلى العزيز ، أنت لا تعرف كيف تصرف أمورك يجب عليك أن تعطى الوزير خمسين جنيهها وخمسة جنيهات لكل واحد من أتباعه » . ونفسه مستر بوترو هذا بالفعل فوصله الشيك فى اليوم التالى .

ولم يكن سيدنى يتورع عن استعمال أساليب المكر والخديعة التى يعتبرها البعض مجافية لاحكام الضمير . فقد أخبرنى مثلا أنه حين كان يرغب فى حمل لجنة من اللجان على الموافقة على احدى النقاط التى تعترض عليها الأغلبية ، كان يعمد الى صياغة القرار بحيث ترد فيه النقطة التى يحندم حولها الخلاف مرتين ، ثم يدخل فى مناظرة طويلة بشأن ورود هذه النقطة لأول مرة . وأخيرا يتكرم بالاستسلام فى ذوق ولطف . والنتيجة التى انتهى اليها هى أنه فى تسعة أعشار الحالات لم يكن أحد يلاحظ ورود نفس النقطة فيما بعد فى نفس القرار .

لقد عمل سيدنى وزوجته الشئ العظيم فى سبيل اقامة العمود الفقرى الفكرى للاشتراكية البريطانية . ويكاد الدور الذى لعبه أن يكون نفس الدور الذى لعبه أتباع بنثام من قبل فى مؤازرة الثوريين الراديكاليين . وكانت عائلة وب تشترك مع اتباع بنثام فى الاتصاف بنوع من الجفاف والحلو من العاطفة والايمان بأن مكان العواطف هو سلة المهملات . ولكن أتباع بنثام وعائلة وب على حد سواء لقنوا مبادئهم لاشياعهم المتحمسين .

واستطاع بنشام روبرت أوين Robert Owen شأنهما في ذلك شأن أن وب
وكير هاردي Keir ardy أن ينجبا ذرية فكرية متزنة تماما . ولا ينبغي
لإنسان أن يتطلب من كل واحد سائر السجايا التي من شأنها
أن تزيد من قيمة البشر . ويكفى الإنسان أن يتحلى ببعض هذه السجايا
وبهذا المعيار يجتاز سيدني وزوجته الاختبار . والذي لا شك فيه
أنه لولاها لاصبح حزب العمال البريطاني اشد عنفا واكثر اضطرابا
هو عليه الآن . . وقد تدثر بردائهما بعدهما ابن أخت مسز وب نلسير
ستافورد كريپس Stafford Cripps واني أشك في أن الديمقراطية
البريطانية كانت ستستطيع بدونها أن تتحمل بنفس الصبر السنوات
الصعبة الشاقة التي مازلنا نمر بها حتى الآن .

(أ) اللورد جون رسل Lord John Russell

ولد جدى الذى أدكره بوضوح وجلاء - فى الثامن عشر من أغسطس عام ١٧٩٢ - بعد أسبوعين من مولد التساخر شيللى الذى انتهت حياته عام ١٨٢٢ . وفى اللحظة التى ولد فيها جدى كانت الثورة الفرنسية قد بدأت لتوها فى الاندلاع - وفى السهر الذى رأى فيه النور - سقطت الملكية . وكان قد بلغ من العمر شهرا واحدا عندما أدخلت مذابح سبتمبر الرعب والفرع فى قلوب الملكيين الانجليز . وبدأت موقعة فالمي Valmy الحرب التى شنتها الثورة على الرجعية - والننى استمر أتونها مندلعا مدى خمس وعشرين سنة . كان موقف جدى من هذه الحرب - كما هو خليف بأحد أتباع فوكس (١) - أقرب مايكون الى من يطلق عليه الآن اسم «الدائر فى فلك اليسار» . واشتمل كتابه الأول (الذى لم ير طريقه الى النشر) اهداء ساخرا الى بت الذى كان لا يزال حينذاك رئيسا للوزارة . وفى أثناء حرب نابليون ضد أسبانيا والبرتغال - سافر الى أسبانيا - ولكن دون أن تعمل فيه رغبة لمحاربة نابليون . وزار نابليون فى البيا - وشهد الرجل العظيم أذنه كما كانت عادته . وعندما عاد نابليون من البيا القى جدى الذى كان قد مضى على عضويته فى البرلمان عامان - خطابا يحص فيه على عدم مقاومته . ولكن الحكومة التى كانت فى أيدي التورير (المحافظين) حينذاك - قررت غير ذلك على كل حال . ف وقعت معركة واترلو نتيجة لذلك وكان أعظم عمل قام به جدى هو اصدار قانون الاصلاح عام ١٨٣٢ الذى وضع بريطانيا على الطريق نحو الديمقراطية الكاملة . وعارض المحافظون هذا القانون معارضة عنيفة للغاية كادت أن تقضى الى حرب أهلية . وكان الاصطدام فى هذا الوقت بمثابة المعركة الحاسمة بين الرجعيين والتقدميين فى انجلترا . ولم ينقذ انجلترا من نشوب الثورة فيها سوى تحقيق النصر السلمى فى هذه المعركة - وقد كان لجدى الفضل الاكبر فى احراز هذا النصر . وبعد ذلك اشتغل بالسياسة لفترة طويلة وتولى رئاسة الوزارة مرتين - ولكن الفرصة لم تسنح له مرة ثانية أن يتولى القيادة الحاسمة فى وقت شدة عصبية . وفى السنوات الأخيرة من عمره - كان معتدلا فى تحرره فقط - الا فيما يتعلق بأمر واحد يتلخص فى كراهيته للأجحاف الناجم عن التفرقة المبنية على أساس دينى . ففي شبابه كان سائر الذين لا ينتمون الى عضوية كنيسة انجلترا يعانون من الاضرار السياسى الجسيم بمصالحهم . وكان اليهود بوجه خاص يستبعدون من البرلمان بمجلسيه - ومن وظائف كثيرة عن طريق قسم لا يستطيع أن يؤديه غير المسيحيين . ومازلت أتذكر بجلاء أننى رأيت حشدا كبيرا من الناس الذين ارتسمت على وجوههم ملامح الجدبة يجتمعون على الحشائش المنبسطة أمام منزلنا يوم ٩ مايو ١٨٧٨ - قبل أن تفيض روحه بأيام قلائل . وكان الحشد يهتف - وتساءلت بطبيعة الحال عن السر فى هتافه

(١) Charles James Fox (١٧٤٩ - ١٨٠٦) : أحد سياسة حزب

الويجز (الأحرار) المعروفين بتأييدهم للثورة الفرنسية .

- فعلمت انهم زعماء المنشقين غير النابعين لكنيسة انجلترا - جاوا يهنتونه على مرور خمسين عاما على اول انتصار عظيم له : وهو الغاء قوانين الاختيار والمجالس Test and corporation Acts التى ستبعد الحسارجين - على كنيسة انجلترا من الوظائف والبرلمان . وغرست مثل هذه الاحداث ودراستى للتاريخ التى ألقت ضوءا عليها فى نفسى الحب الراسخ للحريه المدنية والدينية . وبفى هذا الشعور حيا فى نفسى على الرغم من تولى الأنظمة الديكتاتورية المختلفة التى أغرت الكثيرين من اصدقائى من اليمين أو اليسار على حد سواء . .

ونظرا لوفاة والدى - عشت فى بيت جدى خلال السنتين الأخيرتين من حياته . وكانت حالته الصحية قد تدهورت كثيرا حتى منذ بداية هذا الوقت . ومازلت أذكره وهو يتحرك خارج البيت على كرسى بعجلات - كما أنى أذكره وهو جالس يقرأ فى حجرة الجلوس الخاصة به . وأنا أذكر - وان كانت ذاكرتى لا يعول عليها بطبيعة الحال - أنه كان مشغولا طيلة الوقت بقراءة التقارير البرلمانية على هيئة مجلدات تزدحم بها جدران قاعة واسعة . وكان جدى فى ذلك الوقت الذى أعود بذاكرتى اليه يفكر فى عمل يقوم به بشأن الحرب الروسية التركية فى عام ١٨٧٦ . ولكن التدهور الذى أصاب صحته جعل هذا مستحيلا .

وفى الحياة العامة كثيرا ما كانت توجه اليه مهمة البرود والحلو من العواطف . ولكنه كان فى بيته حانيا ، محبا ، شفيقا الى أقصى حد . وكان يحب الأطفال - وانى لا أذكر مناسبة واحدة زجرني فيها كي أتوقف عن احداث الجلبة أو قال أيا من تلك الاشياء الناهرة والناحية الأمرة التى اعتاد الناس الكبار فى السن أن يوجهوها الى الأطفال الصغار . وكان يتقن اللغويات فلم يجد أدنى مشقة فى القاء الخطب باللغة الفرنسية أو الإسبانية أو الإيطالية . واعتاد أن يستغرق فى ضحك شديد وهو جالس يقرأ «دون كيشوت» فى لغتها الاصلية . وكان يحمل كسائر الاحرار من أهل زمانه الحب الثرومانسى الحالم لاطاليا . وأهدته الحكومة الإيطالية تمثالا يمثل ايطاليا معبرة بذلك عن امتنانها لخدماته فى سبيل قضية الوحدة الإيطالية . كان هذا التمثال قائما على الدوام فى حجرة جلوسه - وكنت أجد فيه أعظم متعة وتسلية .

كان جدى ينتمى الى نوع من الناس انقرض الآن تماما - ذلك النوع من المصلحين الأرستقراطيين الذين يستمدون حماسهم من أعمال الأقدمين من الاغريق والرومان من أمثال ديمستينوس Demosthenès وتاسيتوس Tacitus أكثر من استلهامهم أى مصدر حديث . كانوا يعبدون الالهة اسمها « الحرية » ولكن ملامحها كانت غامضة مبهمة بعض الشيء . وكانوا يعتقدون أيضا فى وجود شيطان زعيم اسمه « الاستبداد » الذى كانت قسماته تتضح بصورة أكبر - ويتمثل فى الملوك والقساوسة ورجال البوليس خاصة اذا كانوا من الأجانب . ولقد ألهم هذا المذهب المفكرين من الثوار فى فرنسا وان كانت مدام رولان Madame Roland قد اكتشفت وهى على المقضلة بساطة هذا المذهب المفرطة ونمذجته . ان هذا المذهب هو الذى ألهم بيرون وقاده الى أن يجارب فى بلاد اليونان - كما

الهم مازينى وغاريبالدى والمعجيين بهم من الانجليز . وكان هذا المذهب يلبس ثياب الادب والشاعرية واورومانية دون أن تشوبه على الإطلاق حقائق الاقتصادية القاسية التي تسود سائر التفكير السياسى الحديث . كان جدى فى طفولته يتلقى العلم على يدى مرب اسمه الدكتور كارتريت Cartwright قام باختراع نول جديد كان أحد العوامل الرئيسية فى قيام الثورة الصناعية . ولم يعلم جدى أبدا أنه قد اخترع هذا النول - ولكنه كان يحمل له الاعجاب للغة اللاتينية المتأنفة - وسمو عواطفه الأخلاقية الى جانب كونه أخا لأحد الثوريين من منيرى القلاقل والاضطرابات المعروفين .

كان جدى يدين بالديموقراطية كمثل أعلى . ولكنه لم يكن من رايه التعجيل بالوصول اليها بأى حال من الأحوال - فقد كان يفضل الامتداد التدريجى لحق الانتخاب . ولكنى أظن أنه كان مقتنعا بأنه مهما قسدر لحق التصويت أن يمتد فستبقى زعامة الأحزاب الانجليزية المصلحة قاصرة على كبار العائلات المنتمة الى حزب الاحرار (الويجز) وأنا لا أعنى أنه كان مقتنعا بذلك عن وعى وادراك ولكن هذا الاقتناع كان جزءا من الهواء الذى يتنسمه - وشيئا يمكن التسليم به دون جدال أو نقاش .

وكان جدى يعيش فى بمبروك لودج Pembroke Lodge وهو منزل يقع فى وسط ريتشموند برك - ويبعد حوالى عشرة أميال عن وسط لندن . كان المنزل هدية من الملكة فيكتوريا اليه - منجته اياه لاستعماله مسدى حياته وحياة جدتى . وفى هذا البيت عقدت اجتماعات وزارية كثيرة - كما وفد اليه كثير من الناس المشهورين . وفى إحدى المناسبات زاره شاه ايران واعتذر جدى عن صغر حجم البيت فأجابه الشاه بأدب « نعم انه صغير ولكنه يحوى رجلا عظيما » وفى هذا البيت قابلت الملكة فيكتوريا وعمرى سنتان . وأثارت اهتمامى الشديد زيارة ثلاثة من الدبلوماسيين الصينيين بملابسهم الصينية الأنيقة الرسمية حينذاك - كما أثارت اهتمامى زيارة اثنين من المبعوثين الزوج من ليبيريا . وكانت فى حجرة الاستقبال منضدة يابانية بدبغة الصنع مطعمة - أهدتها الحكومة اليابانية لجدى . وأصطفت على الوفيفيات زهرتان ضخمتان من الصننى أهداهما اليه ملك ساكسونى . وكانت هناك مسافة ضيقة تفصل بين المائدة ودولاب الصننى . وكان مجرما على تماما أن أحشر نفسى بينهما . ولهذا كنا نطلق عليها دائما تهغاز الدردنيل . كان كل ركن من أركان المنزل يقطن فى ذكرباته بحادثة من أحداث القرن التاسع عشر أو بأحد الأنظمة السائدة فيه والتى تبدو الآن أثرا من آثار التاريخ البعيد كحمام الدودو الذى انقرض من الهوود . وكان كل شيء له علاقة بطفولتى جزءا من عالمه ولّى وانقضى . تماما فرى منى الراهب - البست الفسكتهوى المتنقل لم بعد الآن ملكا للملكة أو ملك دمده لمن يشاء ولكنه تحول الى مكان عام لاحتساء الشاي . أما الحديقة التى امتلأت فيما مضى بالمخاربه والآركان القصبة حدى يمكن لأى طفا أن يختبئ فقد أصبحت الآن مفتوحة على مصر أعينها لعامة الناس . الدبلة ماسهون المأذون الذين يمثلون ملوك دول اختفت لتحل محلهما حموديات - ورجال الأدب الهقرون الذين يخطون أنفسهم

بمظاهر الأبهة والعظمة والذين بدا لهم كل قول عادى ورخيص على أنه ذو دلالة وعمق . كل هؤلاء اختفوا . وفوق هذا كله - اختفى الاقتناع المطلق بالاستقرار والثبات الذى كان يصور انتفاء التغيير فى أية رقعة من العالم على أنه بديهية مسلم بها لا تقبل النقاش أو الجدل . ولا يستثنى من ذلك غير التطور المنظم التدريجى فى أنحاء الدنيا كلها نحو دستور يشبه دستور بريطانيا بالضبط . فهل كان هناك فى أزمنة التاريخ عصر مثل هذا العصر الذى عصب عينيهِ فى سعادة وانتشاء دون أن يتنبه الى أحداث المستقبل ؟ لقد تنبأت كاسندرا Cassandra (١) بحق بحلول المصائب فلم يصدقها أحد . وتنبا أهل العصر الذى عاش فيه جدى تنبؤا زائفا بالرفاهية فصدقهم الناس . ولو تمكن جدى من أن يعود مرة ثانية الى عالمنا الراهن لأصابته أحداث القرن العشرين بالدهشة أكثر مما تصيب جده أحداث القرن التاسع عشر ، لأنه يصعب على الذين شبوا وترعرعوا فى أحضان تقليد قوى راسخ أن يتأقلموا فى العالم الراهن ، والادراك لهذه الصعوبة يجعل فى الامكان فهم كيف تتعرض الامبراطوريات التالدة والنظم العريقة فى الماضى والحاضر - التى بقيت على مر الدهور لأن تكتسح ويطاح بها وينتهى أمرها الى الزوال ، لأن التجربة السياسية التى تتضمنها هذه الامبراطوريات والنظم قد أصبحت بين يوم وليلة غير ذات فائدة ولا تصلح عند التطبيق . ولذلك فإن عصرنا يولد الحيرة فى نفوس الكثيرين ولكنه يقدم فى نفس الوقت احتمال التحدى المثمر الى أولئك القادرين على الفكر الجديد والخيال الجديد .

(١) كاسندرا فى أساطير الاغريق هى ابنة ملك طروادة تنبأت بهلاك طروادة وفنائها فلم يصدقها أحد .

(٩) عظماء آخرون في حياة برتراند رسل

لقد عرفت في خلال حياتي عددا كبيرا من النساء والرجال البارزين منذ العصر الفيكتوري حتى يومنا الراهن . وقد دلتني تجربتي على أن أعظم الناس أثرا في التاريخ - باستثناء حالات قليلة - ليسوا على درجة عظيمة من التأثير من الناحية الشخصية ، كما أنهم لا يمتازون بشكل غير عادي بالصفات التي تجعلهم شخصيات لا تنسى . قابلت الملكة فيكتوريا مرة واحدة في حياتي في السنة الثانية من عمري ، ولست أذكر هذه المقابلة لسوء الحظ . ولكن الذين يكبرونني في السن لاحظوا لدهشتهم أن مسلكتي في حضرتها كان ينم عن الاحترام البالغ . ومن ناحية أخرى، كنت في نفس العمر عندما قابلت لأول مرة روبرت برونيغ Robert Browning الذي كان كثير من الناس يعتبرونه أحسن شاعر في عصره . وقاطعت حديثه في صوت يخترق الأذن بقولي : « لكم أتمنى أن يسكت هذا الرجل عن الكلام » . وتكررت مقابلي له في السنوات الأخيرة من حياته ، ولكني لم أجد فيه شيئا يدعو إلى التبجيل . كان جنتلمانا عجوزا لطيف المعشر، عطوفا يشعر بالارتياح التام في حفلات الشاي التي تجمع السيدات اللائي في منتصف العمر ، كما كان شديد التألق ، رقيقا ، وأليفا تماما . ولكنه كان يخلو من النار المقدسة التي يتوقع المرء أن يجدها في شاعر .

ومن ناحية أخرى كان تينسون Tennyson ، الذي كنت أراه كذلك بشكل متكرر ، يمثل دور الشاعر دائما مما أثار احتقاري لة في يفاعتي . وكان من عادته أن يسير في الريف برهو وخيلاء في معطف فضفاض ، ويصر كل الإصرار على عدم رؤية الناس الذين يصادفونه في طريقه ، كما كان يستعرض المسلك اللائق بشرود ذهن الشعراء . ومن بين الشعراء الآخرين الذين قابلتهم ، أعقد أن أكثر شخصية لا تنسى هي شخصية ارنست تولر Ernest Toller ، ويرجع هذا أساسا إلى قدرته على الألم الحاد غير الشخصي . أما روبرت بروك Rupert Brooke الذي كنت أعرفه معرفة غير وطيدة فكان جميلا يتدفق بالحيوية ، ولكن هذا الانطباع الطيب كانت تشويه مسحة من اصطناع بيرون وعدم إخلاصه مع قدر من الزرشة والتزويق المصطنع .

وكانت لشخصية وليم جيمس من بين الفلاسفة البارزين - باستثناء الاحياء منهم - أكبر الأثر في علي الإطلاق ، على الرغم من الطبيعية التامة التي اتسمت بها تصرفاته وعلى الرغم من انتفاء كل مظاهر الشعور بأنه رجل عظيم . ولم تغلح أية محاولة من جانبه لإظهار شعوره الديمقراطي ، ورغبته في الاندماج التام مع روح عامة الناس في أن تنتقص من قدره كاستقراطي مطبوع ، وكرجل يبعث امتيازه الشخصي على الاحترام . وبعض الفلاسفة - ممن لبسوا بالضرورة أكثرهم كفاءة ومقدرة - يترون في النفس كبير الأثر بسبب أمانتهم الفكرية . ومن بين هؤلاء يضرب هنري سيدويك Henry Sidgwick الذي كان يدرس لي علم الاخلاق مثلا

رائعا • ففي شبابه كانت وظائف الزمالة في كامبريدج قاصرة فقط على هؤلاء الذين يرتضون التوقيع على بنود كنيسة انجلترا التسعة والثلاثين • وبعد انقضاء أعوام على توقيعها بدأت الشكوك تساوره • وعلى الرغم من أنه لم يكن ملزما بتأكيد ثباته على معتقداته ، إلا أنه قرر ان واجبه يقتضى منه تقديم استقالته • وقد عجل مسلكه هذا بتغيير القانون الذى وضع نهاية للقيود اللاهوتية القديمة • وقد كان كمدرس يظهر نفس الصدق والأمانة ، وينظر الى الاعتراضات التى يثيرها الطلبة فى أدب واهتمام كما لو كانت صادرة عن زملائه • وقد جعل هذا تدريسه أكثر جدوى من تدريس الكثيرين انذين يفوقونه فى الكفاءة والمقدرة •

ويتصف رجال العلم ، فى أحسن صورهم ، بنوع خاص من التأثير فى النفس منشؤه الجمع بين العقل العظيم وبساطة الاطفال • وعندما أقول (بساطة) لا أعنى أى شىء دال على انعدام الذكاء ، بل أعنى عادة التفكير فى غير الذات وبغض النظر عن الفائدة أو الخسارة الدنيوية التى يتضمنها إبداء رأى أو القيام بعمل • وقد كان انيشتين من بين رجال العلم الذين أعرفهم مثلا رائعا لهذه الصفة •

وفيما يتعلق برجال السياسة ، عرفت سبعة رؤساء وزارة ابتداء من جدى (الذى تولى رئاسة الوزارة فى عام ١٨٤٦) حتى المستر آتلى • وكان جلادستون – الذى كان معارفه يشيرون اليه (بالمستر) جلادستون – أكثر شخصية لا تنسى على الاطلاق • كما كان لينين الرجل الآخر الوحيد الذى عرفته فى الحياة العامة والذى يمكنني اعتباره على قدم المساواة فى اثره الشخصى مع جلادستون • كان جلادستون تجسيدا للفكر الفيكترورى كما كان لينين تجسيدا للمعادلات الماركسية – ولم يكن أى منهما انسانيا تماما وان كان كل منهما يملك سلطان قوة من قوى الطبيعة •

كان مستر جلادستون فى حياته الخاصة يحقق هيمنته على الآخرين عن طريق جبروت عينه السريعة النفاذة التى يقصدها ورائها اشاعة الرهبة والخوف • وكان المرء يشعر أمامه كما يشعر نلميذ صغير فى حضرة مدرس من الجيل القديم برغبة فى استسماحه قائلا « من فضلك ياسيدى ، لم أكن أنا الذى فعلت هذا » وكان كل انسان يشعر فى حضرته بمثل هذا الشعور وأنا لا أستطيع أن أبصو مخلوقا يجد فى نفسه الجرأة أن يروى له قصة يحتمل ان تثير لو جانبا ضئيلا من غضبه أو ضيقه ، فاستشباعه الاخلاقي للقصة كان كفيلا بأن يخيّل الراوى الى قطعة حجر ، كانت لى جسدة هى أفطح امرأة عرفتها فى حياتى فقد كانت فرائص مشاهير الرجال ترتعد دائما أمامها ، ولكن ذات مرة عندما كان مستر جلادستون مدعوا للشاي اخبرتنا جميعا سلفا أنها لن تسكت له بخصوص سياسته الايرلندية التى كانت تختلف معها بشدة ، وحضر جلادستون ، وكنت موجودا طيلة الوقت وقد تعلقت أنفاسى متوقعا الصدام المنتظر ، ولكن بالاسف رأيت جدتى تفيض رقة ولم تتفوه بحرف واحد يجعل الأسد يزار ، ولم يكن ليجول بخاطر انسان أنها كانت تختلف معه على أى شىء •

وكانت أكثر تجربة مروعة مخيفة فى حياتى تتصل بالمستر جلادستون

فعندما كنت في السابعة عشرة من عمري شابا شديد الحجل والارتباك حضر عندنا جلادستون ليقضى عطلة نهاية الاسبوع مع عائلتي ، وكنت «رجل» البيت الوحيد ، وبعد أن تناولنا الغداء ، وانسحبت السيدات طلبا للراحة ، وجدت نفسي بمفردي وجها لوجه أمام الغول . وجمدت الى الحد الذي منعني من أداء واجباتي كضيف ، ولم يفعل هو من جانبه شيئا يساعدي به على التغلب على ارتبائي ، وجلسنا في صمت لمدة طويلة وأخيرا تنازل وأبدى ملحوظة كانت أول وآخر شيء تفوه به فعال في صوت خفيض هادر : «نبيل (البورت) الذي أعطوه لي جيد جدا ، ولكن لماذا قدموه الى في الكأس المخصصة لنبيذ (الكلاريت) ؟ ومنذ ذلك الحين وأنا أواجه الرعاع الساخطين المهتاجين ، والقضاة الغاضبين ، والحكومات العدائية ولكنني لم أشعر قط بذلك الرعب الذي أصابني في تلك اللحظة التي جمدت الدم في عروقي .

كان الافتناع الأخلاقي العميق السر في نفوذ المستر جلادستون السياسي وكانت له مهارة السياسي الذكي ، ولكنه كان مخلصا في اقتناعه أن كل مناورة من مناوراته تستلهم أشرف المقاصد وأنبل الأغراض ، وقد لحص لابوشير Lobouchere الساخر شخصيته في قوله : وهو ككل سياسي ، يخفى دائما شيئا في جعبته لوقت الحاجة ، ولكنه يختلف عن الآخرين في اعتقاده بأن الله هو الذي أخفاه في جعبته ، وكان يدا ب في جدية على استشارة ضميره والرجوع اليه كما كان ضميره يدا ب في جدية على اسداء النصح المناسب له .

وتجلى شخصيته الطاغية في القصة - سواء كانت حقيقية أم لا - التي تصور التقاء بأحد السكارى في اجتماع ، ويبدو أن هذا الرجل كان ينتمي الى الحزب السياسي المعارض لجلادستون ، وأنه دأب على مقاطعته ، وأخيرا ، جمده مستر جلادستون في مكانه بنظرة من عينيه ، وخاطبه بهذه الكلمات : « هل يسمح لي السيد - الذي لم يكتف بمقاطعتي مرة ، بل دأب على مقاطعتي باعتراضاته - أن يوفر لي ذلك القدر الكبير من الأدب والذوق الذي كنت لا أتوانى لحظة في توفيره له لو أننا تبادلنا أمكنتنا » وقد قيل - وأنا على استعداد تام لتصديق ما قيل - أن الصدمة جعلت الرجل يفيق من سكرته فالتزم الصمت خلال بقية الأمسية .

ومن الغريب ان نحو نصف أهل وطنه - بما فيهم الغالبية الأعظمى من الأثرياء - كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى مجنون أو شرير أو الى مجنون وشرير معا ، وفي طفولتي ، كانت غالبية الأطفال الذين أعرفهم يحافظه . وقد أكدوا لي في هيبة ووقار - كحقيقة شائعة معروفة - أن المستر جلادستون يقوم كل صباح بطلب عشرين قبعة من أفخر القبعات من بائعين مختلفين ، الأمر الذي يضطر زوجته الى الخروج واللف على المحلات حتى تلغى هذا الطلب (كان هذا قبل استحداث التليفون) . وكان البروتستانت يفترضون أنه يتآمر سرا مع الفاتيكان كما كان الأغنياء (باستثناء قلة منهم) ينظرون اليه كما كان أكثر الأثرياء الأمريكيين رجعية ينظرون الى مستر روزفلت ، ولكنه ظل هادئا لا يتأثر لانه لم يشك أبدا أن الرب كان

يسأله ويؤيده . وقد كاد أن يكون الها بالنسبة الى نصف الأمة الانجليزية .

كان لينين الذى تحدثت معه حديثا طويلا فى موسكو عام ١٩٢٠ يفاير جلادستون من الناحية السطحية مغايرة كبيرة ، ومع هذا فسنجد - اذا أدخلنا فى اعتبارنا الفرق فى الزمن والمكان والمذهب - أن هناك صفات مشتركة كثيرة تربط الرجلين ، ولنبدأ بأوجه الخلاف بينهما كان لينين فظا قاسيا ، ولم يكن جلادستون كذلك ، لم يكن لينين يحفل بالتقاليد أو يقيم لها وزنا ، فى حين أن جلادستون كان يكن كبير الاحترام لها . كان لينين يعتبر كل الوسائل التى تحقق انتصار حزبه مشروعة ، فى حين أن جلادستون كان ينظر الى السياسة على أنها لعبة لها قواعد معينة يجب مراعاتها ، وفى نظرى أن كل هذه الخلافات تجعلنا نفضل جلادستون وعلى هذا الأساس فقد كانت لجلادستون بوجه عام آثار طيبة فى حين كانت آثار لينين مخربة مدمرة .

وعلى الرغم من كل هذه الخلافات نجد على كل حال أن أوجه الشبه بينهما كانت لا تقل فى عمقها عن أوجه الخلاف . لقد كان لينين يفترض أنه ملحد ، ولكن الصواب جانبه فى هذا ، فقد كان يعتقد أن (الجدلية) dialectic - التى كان الأداة المنفذة لها - تسير دفة العالم ، وكان يرى نفسه مثله فى ذلك مثل جلادستون - على أنه المندوب البشرى لقوة فوق البشر . وكانت قسوته وجوره يتجليان فقط فيما يستخدم من وسائل ، وليس فيما يهدف اليه من غايات ، فهو لم يكن على استعداد لان يشتري السلطان الشخصى بدفع الردة عن مذهبه ثمنا له . وكان كلا الرجلان يستمدان قوتهما الشخصية من الاقتناع الذى لا يتزعزع بنزاهة شخصيتهما . ومن أجل مساندة مذهبهما خاض الرجلان بسبب جهلتهما فى مناطق غريبة عنهما مما أثار انسخرية منهما ، فخاض جلادستون فى نقد الكتاب المقدس . Biblical Criticism وخاض لينين فى الفلسفة .

وإذا قارنا الاثنين نجد أن جلادستون يفوق لينين فى كونه شخصية لائسى ودليل على ذلك ما سيعتقده المرء بخصوصيهما لو قدر له أن يقابل كلا منهما فى قطار دون أن يعرف حقيقة شخصيته ، فانا مقتنع أن جلادستون فى مثل هذه الظروف كان سيبهرنى الى الحد الذى يجعلنى أعتقد أنه أحد الرجال الذين يقابلهم الإنسان فى حياته فيظلون مائلين فى ذهنه أبدا ، وكنت سأفقد فى حضرته القدرة على الكلام وسأبدو كما لو كنت متفقا معه فى كل مايقول . أما لينين فعلى النقيض من ذلك ، كان يبدو لى فيما أعتقد متعصبا ضيق الأفق وساخرا (cynic) رخيصا .

وانا لا أزعم أن مثل هذا الحكم سيكون فى محله ، فهو حكم جائر . لا لأنه غير صحيح ولكن لأنه ناقص . فعندما قابلت لينين لم يترك فى نفسى انطباع الرجل العظيم الذى توقعته ، فقد كانت انطباعاتى الحية هى نعصبه وقسوته المغولية ، وعندما سألته عن الاشتراكية فى الزراعة ، شرح لى فى سرور وابتهاج كيف انه كان يحرض الفلاحين الفقراء ضد أقرانهم الأوفر حظا وفى الحال كانوا يعلقون لهم المشائق على أقرب

شجرة، ثم يقهقه ، وكانت قهقهته وهو يذكر الذين ذبحوا بهذه الطريقة تجعل بدني يقشعر .

وكانت الصفات التي تصنع الزعيم السياسى موجودة فى لينين بدرجة أقل وضوحا من جلادستون ، فانا أشك اذا كان لينين يستطيع أن يكون زعيما فى الأزمنة الهادئة غير المضطربة ، وكان يستمد قوته من حقيقة مفادها أنه يكاد يكون الوحيد فى أمة حائرة مهزومة الذى لم يساوره الشك ، وظل يبشر بأمل فى نصر من نوع جديد على الرغم من المصيبة العسكرية التى لحقت بأمته ، وبدأ أنه يدل على صحة انجيله الذى يبشر به عن طريق العقل الهادئ الذى لا ينفعل بالعواطف ، العقل الذى يعتمد على مؤازرة المنطق كحليف له ، وهكذا بدت له عواطفه وعواطف أتباعه، كما لو كانت تتمتع بتأييد العلم لها ، وكما لو كانت الوسيلة الوحيدة التى سيتم بها خلاص العالم ، ولا بد أن روبسبير كان يملك جانباً من نفس هذه الصفة .

لقد تحدثت عن رجال كانوا بارزين بطريقة أو أخرى ، ولكنى كنت غالبا ما تأثر فى واقع الأمر برجال ونساء لانصيب لهم من الشهرة والشئ الذى وجدت ألا سبيل الى نسيانه هو ضرب من الصفة الأخلاقية والمعنوية يتمثل فى علم تفكير الانسان فى ذاته سواء فى الحياة الخاصة ، أو فى شئون الحياة العامة ، أو فى اقتفاء أثر الحقيقة ، ففي يوم من الايام التحق بخدمة بستانى لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كان نموذجا كاملا للطيبة البسيطة التى كان تولستوى مولعا بتصويرها بين الفلاحين ، وهناك انسان اسمه H.D. Morel مورل لن أنساه ماحييت نظرا الى طهارة قلبه ، قد بدأ حياته ككاتب شحن بضائع فى ميناء ليفربول ، ثم بدأ يدرك الفظائع التى ينطوى عليها استغلال الملك ليبولد فى الكونغو ، وتعين عليه حتى يعلن عن رأيه أن يضحي بوظيفته ومصدر رزقه ، وبدأ يعمل من أجل دعوته ، بمفرده أولا ، حتى استطاع تدريجيا على الرغم من معارضة كل حكومات أوروبا أن يثير الراى العام ويضطر الحكومات الى الاصلاح ، ثم ضحى بالمكانة الجديدة التى اكتسبها لنفسه فى سبيل دعوته الى السلام أثناء الحرب . مما أدى الى الزج به على السجن خلال فترة الحرب .

وعاش بعد تكوين أول حكومة عمالية بوقت قصير ، واستبعده رامزى ماك-دونالد من الوزارة حتى يصرف الناس النظر عن ماضيه هو فى الدفاع عن السلام .

ومن النادر أن يكون النجاش الديوى من نصيب مثل هؤلاء الناس ولكنهم يلهمون من يعرفونهم الحب والاعجاب الكذين بفوقان خبنا واعجابنا بمن هم أقل منهم طهارة فى القلب .

خاتمة

برتراند رسل ينعي نفسه -

وبعد فاني أقدم للقارئ العربي ترجمة لمعى كنبه برتراندرسل منذ خمسة وعشرين عاما ، ينبا فيه بوفاته فى سنة ١٩٦٢ • ونحن لا نريد بطبيعة الحال أن نتعجل نهاية اعميلسوف الدهل ، بل نتمنى أن يبقى ذخرا للانسانية والسلام ، وأن يمتد به العمر حتى يرى بشائر السلام نهل على هذا العالم الممزق المحموم ، فيموت قرير العين لان جهوده من أجل السلام قد طرحت وأتت بعض الثمار • وآخشى ما نخشى ألا يطول به الأجل حتى يرى حمامة السلام ترفرف على كوكبنا الحزين • والحافز الذى دفعنى الى اختيار النص كخاتمة لهذا الكتاب هو أن هذا النعى يلخص فى تلمات ولائل وبطريقة مجملة جوانب فى حياة الفيلسوف واتجاهاه الفلسفية ، كما يلقى ضوءا على أسلوبه الساخر الذى لم تتسع طبيعة محتويات الكتاب للتعرض له • والذى لاشك فيه أن برتراندرسل امام من أئمة السخرية فى القرن العشرين •

نعى (١٩٣٧) (١)

ب وفاة رسل الايرل التالب (أو برتراندرسل كما كن يفضل أن يسمى نفسه) فى عمر التسعين ، انفصمت حنقه تتصل بماض سحق جدا • وقد زار جده اللورد جون رسل رئيس الوزارة فى عهد الملكة فيكتوريا ، نابليون فى البيا • وكانت جدته من ناحية الأم صديقة لأرملة حفيد جيمس الثانى المطالب بعرش بريطانيا • وأنتج رسل فى شبابه عملا له أهميته فى المنطق الرياضى • ولكن موقفه الشاذ اثناء الحرب العالمية الاولى كشف من خلل فى قدرته على الحكم المتزن مما لوث بصورة مطردة كتاباته الأخيرة • وربما يرجع هذا ، ولو جزئيا على الأقل الى أنه لم يتمتع بمزايا التعليم فى مدرسة خاصة Public School • ولكنه تلقى تعليمه فى منزله على أيدي مربين خاصين حتى بلغ النامنة عشرة من عمره ، عندما التحق بكلية ترينيتى بكامبريدج ، وأصبح فى الصف الرياضى السابع بتفوق عام ١٨٩٣ وزميلا عام ١٨٩٥ ، وفى خلال الخمسة عشر عاما التى تلت ألف الكتب التى ذاعت بسببها شهرته فى الأوساط العلمية وهى أسس الهندسة ، The Foundations of Geometry وفلسفة ليبنتز

(١) هذا النعى سينشر (أو لا ينشر) فى صحيفة التيمز فى عددها الصادر ١ يونيه ١٩٦٢ بمناسبة وفاتي المأسوف عليها ، وان كانت قد جاءت متأخرة • وقد نشر هذا النعى الذى يتنبأ بالمستقبل فى اللسينر Listener عام ١٩٣٧ •

The philosophy of Leibnitz ومبادئ الرياضيات The principles of Mathematics ومبادئ الرياضيات Principia Mathematica (بالاشتراك مع الدكتور أ . ن . هويتهد) ولا شك أن هذا الكتاب الأخير الذي كانت له أهمية قصوى في أيامه مدين بالفضل في كثير من تفوقه الى الدكتور (وفيما بعد البروفسور) هوينهد وهو رجل يمتاز كما تبين من كتاباته اللاحقة بتلك البصيرة والعمق الروحي اللذين خلت منهما كتابات رسل بشكل واضح ، فبراهين رسل في الجدل رغم ما فيها من ذكاء وبراعة، تتجاهل الاعنبارات السامية التي تتجاوز مجرد المنطق .

وقد أصبح هذا التجرد من العمق الروحي مؤلما بصورة واضحة خلال الحرب العالمية الاولى عندما جهر برأيه في شنود مناديا بأن يهدف السياسة الى وضع نهايه للحرب بأسرع ما يمكن نظرا لأضرارها (ولكن يجب القول انصافا له بأنه لم يقتل على الاطلاق من شأن الشر الذي لحق ببيلجيكا) ولم يكن من الممكن الوصول الى هذه النتيجة الا اذا لاذت بريطانيا بالحياذ، وانتصرت ألمانيا . ويجب أن نفترض أن دراسته للرياضة جعلته ينظر الى الامور نظرة كمية خاطئة منجاهلة المبدأ الذي يفتق وراء الاشياء . واستمر طوال مدة الحرب في حنه لانهايتها تحت أية شروط مهما كانت . ونجردته ترينيتي كوليدج - وهي محققة في ذلك - من استاذيته ، وزج به في السجن مدة بضعة أشهر من عام ١٩١٨ .

وفي عام ١٩٢٠ زار روسيا زيارة قصيرة ، ولم نترك حكومتها أنرا طيبا فيه ثم زار الصين لمدة أطول حيث استمتع بالمذهب العقلي الذي يتمثل في حضارتها التقليدية بما فيها من رائحة زكية مازالت باقية . . . رائحة كان شذاها يعطر القرن النامن عشر (١) . وفي السنوات التالية تبدد نشاطه في كتابات ندافع عن الاشتراكية والاصلاح التعليمي وتحبيذ قوانين أخلاقية خاصة بالزواج أقل نزمتا . ولكنه كان على كل حال يعود أحيانا الى موضوع لاينير اهتمام عامة الناس كما تنيرها هذه الموضوعات . وكتاباته التاريخية تخفي عن القراء عن طريق أسلوبها وعنصر الدعاية فيها سطحية المذهب العقلي البالي الذي ظل يدين به حتى آخر أيامه .

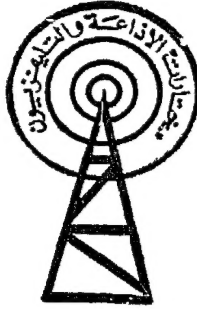
وفي الحرب العالمية الثانية ، لم يلعب دورا في الحياة العامة ، فقد هرب الى دولة محايدة قبل نشوب الحرب مباشرة . وكان من عادته أن يقول في أحاديثه الخاصة ، انه من الطبيعي أن ينصرف المجانين المتعطشون للقتل الى قضاء بعضهم على بعض ، ولكن يجب على العقلاء أن يبتعدوا عن طريقهم وهم يفعلون ذلك . ولحسن الحظ أن هذه النظرة التي تذكرنا بينتام (٢) قد أصبحت نادرة الوجود في هذا العصر ، الذي يرى أن للبطولة قيمة مستقلة عن نفعها . حقا لقد أصاب الدمار الشيء الكثير من

(١) لاحظ أن القرن الثامن عشر في أوروبا يمثل استكمال ملامح المذهب العقلي الذي يدين به رسل .

(٢) Bentham . فيلسوف انجليزى أسس المدرسة النفعية في الفلسفة في أوائل القرن التاسع عشر . وأهم ما يميز هذا المذهب الايمان المطلق بالعقل وقيمة العلم ونبذ العواطف والدين .

العالم الذى كان متمدناً فى يوم من الأيام ولكن لا يمكن لانسان سديد
الراى أن يزعم أن الذين ماتوا من أجل الحق فى النضال العظيم قد قضوا
عبثاً .

وكانت حياته ، على الرغم مما فيها من شذوذ ، تنسجم بالانسجام
الفكرى الذى عفا عليه الدهر ، مما يذكرنا بالتمردين الأرستقراط فى
مطلع القرن التاسع عشر . وكانت مبادئه غريبة ولكن هذه المبادئ كانت
تهيمن على أفعاله ، ولم يظهر فى حياته الخاصة شيئاً من المرارة التى
تفسد كتاباته ، فقد كان محدثاً بشوشاً مرححاً لا يخلو من العاطفة
الانسانية . وكان له أصدقاء عديدون ، ولكنه عاش بعد أن شيع معظمهم
الى مثواهم الأخير . وعلى الرغم من ذلك بدا رسل فى سنه المتقدمة
للغاية ، للباقيين من أصدقائه على قيد الحياة ، مليئاً بالبهجة والاستمتاع
بالحياة ويرجع هذا الى صحته الموفورة التى لم يطرأ عليها أى تغيير ، مافى
ذلك شك . وقد كان معزولاً فى آخر أعوامه من الناحية السياسية كما
كان ميلتون معزولاً بعد رجوع الملكية الى انجلترا . وهو آخر رجل بقى
على قيد الحياة من عصر ولى وانقضى .



١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ - ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢ - ٤٥٣٤٦



العدد ١٢

العدد ١٦

To: www.al-mostafa.com